صغار ولكن أبطال

عثمان أَلاَكُوزْ

صغار ولكن أبطال

Copyright©2013 Dar al-Nile
Copyright©2013 Işık Yayınları

الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تحرير

إسماعيل قايار

مراجعة

يوكسل جلبنار - عبدالله محمد بسطويسي

تصحيح

عبد الجواد محمد الحردان

المخرج الفني

أنكين جيفجي

تصميم

حسين قاسم أُوغْلُو

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع: ISBN 978-975-315-524-3

رقم النشر

472

IŞIK YAYINLARI
Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
Üsküdar - İstanbul / Türkiye 34696
Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي – خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة – مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5
Mobile: 0020 1000780841
E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

صِغار ولكن أبطال

تأليف
عثمان أَلَاكُوزْ

ترجمة
أسماء مكاوي / إنجي عاصم

المحتويات

السِّلك ٧
استشهد ولم يُسلِم أُذنيْه ١٣
قضبان القطار ٢٠
الجسر ٢٧
الأمانة الأولى ٣٦
حجر النَّبْلة ٤٣
أثناء نقل المُؤَن ٥٣
مِلْح البارود ٦١
الفأس المفلول ٦٩
مَنْ سيفعلها؟ ٧٦
صدورهم رحبة ٨٣
الرسول ٩١
لِأَذْهَبْ أنا هذه المرة ٩٨
المبنى الحصين ١٠٦
المراجع ١١٢

السِّلك

كان والدي حارسًا للحقول، يدعونه "الثعلب"، كان مشهورًا بدهائه، ويعطي عملَه حقّه، ويأكل من عمل يده؛ وكم من الحدائق حَرَس، إلا أنه لم يَمُدَّ يده يومًا لثمرةٍ واحدةٍ بغير إِذْن صاحبها، فإن قيل له: إن للعين حقًّا أن تأكل مما تراه، أجاب قائلًا: أَوَ يجوز هذا، وأين حقّ العباد إذًا؟

وعندما بدأت الحرب ما لبث أن حمل على كتفه بندقيته التي يستعملها لترويع الحيوانات المفترسة، ويصطاد بها أيضًا من حينٍ لآخر، وتوجَّه من فوره إلى الهيئة المركزية، وفي الحقيقة إنكم لن تجدوا في المدينة الكبيرة شخصًا واحدًا بعد بَدء الاحتلال لم يقل: دلّوني على الجبهة، فسأحارب أنا أيضًا.

تجمّعوا وأُرسِلوا إلى منطقة آيدِن بابا، لم تكن وتيرة الحرب قد اشتدَّت بعدُ، وفي بعض المناطق كانت تدور مناوشاتٌ عنيفة؛ أعدّ رجالنا خنادق منيعة، وكانوا يتربصون بالعدو غفلة ليشنّوا هجومًا كاسحًا؛ لم يكن بالإمكان إرسال المؤن من مركز المدينة إلى المقاتلين في الخنادق، وكانت المؤن المتوفرة محدودةً، فكنّا نقوم -نحن الفتيةَ- بنقل الطعام من بيوتنا إلى آبائنا، ولم يكن عملنا يسيرًا ألبتة، فقد تصيبنا رصاصة طائشة من حيث لا ندري فنموت، نعم نُدرِك أننا إِنْ مُتْنَا غدونا شهداء، لكن من الشجاعة أن لا نموت، إن علينا أن ننقذ عيناتٍ من الفرنسيين.

سعداءُ أَنَّنا نقوم بعملٍ مفيدٍ، كنَّا نتسلل دون أن نحفل بأزيز الرصاص عن يميننا وشمالنا، وكان التخفي والسير في عتمة الليل يُسهلان مهمَّتنا، وإن كانت الأجواء تنذر بالخطر.

وكان ما كان.. في أحد الأيام التي كنت أنقل فيها الطعام لأبي كالعادة، وكانت الحرب قد بدأت تنثر ما في جَعْبتها حقًّا، والقنابل تزداد وقعًا فوقنًا، وأماكن القصف غدَت خَرَابًا يَبابًا، ومثار النقع الأليل يغزو السماء، والأرض تتزلزل فتَخال أنّ ما بها زلزال، لَكم كانت المعارك عنيفة يومئذ، حينها وجدت أبي -وهو يحدّث نفسه حانقًا غاضبًا- يلعن أسلاف الأعداء، ويتوقف برهة ثم يعود فيحدث نفسه من جديد، شعرت بالفضول فسألت على عجَل: ماذا حدث يا أبي؟ أراك تحدث نفسك، هل حلّ بالناس أمرٌ يكرهونه؟

وهل هذا سؤال؟! هل سيتوتر أبي هكذا لو لم يقع ما يكره؟! نظرَ لوجهي بحِدّة وكأنه يصبّ جامَ غضبه عليّ، وماذا سيحدث أكثر من هذا؟! القصف العنيف مزَّق أسلاك البرْق، فلا يمكن الاتصال بأي جهة، ولا بد من سلكٍ لإصلاح ما تلِف، ونحن محاصرون كما ترى -كان توتره يهدأ كلما تحدّث، أما أنا فكنت أستمع بتركيز-، خلاصة الأمر أنّ عملنا سيضيع هباءً إن لم يُعثر على سلكٍ في أقرب وقت ممكن...

تهلّلت أسارير وجهي؛ لأنَّ أبي رأى فيَّ فتًى ناضجًا وأجابني، كان عمري أحد عشر عامًا إلا أنني كنت أبدو أكبر من ذلك، كنت الأسرع في العَدْوِ بين الفتيان، لا سيما أن أحدًا لم يكن لِيتفوقَ عليّ في تسلق الأشجار؛، وفجأة لمعت في ذهني فكرة رائعة، فتحمست ولم أعد أتمالك نفسي، فبدأت في الالتفاف حول أبي، فأدرك أنني

أريد أن أقول شيئًا، وكان هذا هو الوقت المناسب تمامًا، فتكلمت على الفور... أبي، ما رأيك أن أحضر لكم سلكًا للبرق؟ فقال وكأنه يوبخني: إليك عني، وأنّى لك أن تجد سلكًا؟ نحن الكبار نبحث ولا نجد، فلا تزعجني؛ كنتُ جادًّا للغاية في اقتراحي، فلم أحفل بتوبيخ أبي؛ والله يا أبي، صدقني، أعطوني مِقَصًّا لأقص به السلك، ولا عليكم بالباقي.

عندما أدرك أبي أنني جادٌّ في اقتراحي، اصطحبني على الفور إلى السيد عُكَّاشَة بهري دون أن يسألني عن كيفية قيامي بتلك المهمة، وروى له أبي ما قلت، وقال: سيدي، سيُحضر ابني شرف سلكًا من مكانٍ ما، وهو يطلب بعض الأشياء لقطع السلك، انبسط حاجبا السيد عُكَّاشَة، ولطالما قطّبهما من قبلُ، وقال بصوت أبويّ: صحيحٌ ما قال والدك يا بني؟ كيف سيكون هذا الأمر؟ نعم -سيدي- صحيح، أعطوني مِقَصًّا، ولا تشغلوا أنفسكم بالباقي، فلسوف أحضر السِّلك المطلوب مهما كلَّف الأمر.

تردّد السيد عُكَّاشَة برهةً من الزمن إلا أنَّه كان واضحًا على وجهه أنه سيمنحني ثقته في هذه المهمَّة ولو قليلًا، وأمر بتنفيذ طلبي؛ وبعد عدة دقائق جيء بمقص لقطع السلك، فأخذته ووضعته في حزامي، وقبّلت يد أبي، فقبّلني هو أيضًا من رأسي، وقال: "خُذْ حِذْرَك يا بنيَّ! إياك أن تلقيَ بنفسك في الخطر، لا تذهب إلى المناطق المحفوفة بالخطر".

ابتسم السيد عُكَّاشَة ابتسامة عذْبة: حقًّا إنّه ابن أبيه، فهذا الشِّبل من ذاك الأسد.

كانت الشمس توشك أن تغيب، وراحت تُخفي قرنَيْها في الخنادق، وجاءت عتمة الليل لتسهل مَهمّتي، فكنت أدِبّ دبيبًا، كانت

منطقة المعهد وجهتي، ومن قبل كنت قد رأيت عددًا كبيرًا من أعمدة البرق في تلك المنطقة، مررت بين البساتين، كنت أسير متخفيًا، ثم نزلت إلى جدول "اللَّبَن"، لم يكن لأحد أن يراني، كنت أسير على طول النهر أقفز على الصخور، حتى بلغت أسفل جسر ماغان أوغلو، انتابني حماس غريب وتوتُّر اختلط بخرير النهر؛ ترى هل أنا قادرٍ على تنفيذ المهمة التي أخذتها على عاتقي دون أن أُفسد الأمر؟! ماذا لو حدثت مشكلة؟ ماذا لو قالوا: أقبل على أمرٍ لا طاقة له به، فجرّ على نفسه جرائر؟ وماذا لو لم يجد أبي والسيد عُكَّاشَة ما أمَّلوه فيّ بثقتهم بي، وبينما كنت أسير شارد الذهن ارتفع أذان المغرب من خنادقنا، فتوضأت في مياه الجدول الباردة، وأدّيت صلاتي على عُشبٍ طالما داعبت رطوبته حُرّ وجهي، وبعد أن تضرعت إلى الله ودعوته استرحت برهةً من الزمن، لم أكن متعجّلًا، كان لا بد أن أتأكد من هدوء المكان تمامًا...

كانت مجموعة من وحدات العدو تستخدم المعهد معسكرًا لها، وعند كلٍّ من دعامة الجسر التي في جانبنا وكذا في الطرف المقابل عمود منتصب، فالسلك الذي أريده طرفٌ منه موصول بعمود في جهة العدوّ والآخَر في أرضنا، وكان عليّ أن أقوم بالجزء الأصعب أوَّلًا؛ فذهبت زاحفًا حيث العمود الذي في جهة العدوّ، وغرِقت السماء -بفضل ربّي- في ظلام دامس، إلا أنه بوسعهم أن يروني لو كان بيدهم مصباحُ كشَّافة، لم يكُن هناك شيء من هذا، كان عليَّ أن لا أخطئ، فتسلقت عمود البرق رويدًا رويدًا لئلا يَلحظني أحد، تسلقت بسهولة للغاية، وأدركت أنني تعلمت الكثير من شجر الحور الذي كنا نتسلقه لنختبئ في ألعابنا الصيفية، دون أن نكترث بتمزق سراويلنا،

أخرجت المقص من حزامي، وقطعت السلك بسهولة وكأني أقطع عنقود عنب، ونزلت بهدوء، وصنعتُ من القطعة التي اقتصصتها طوقًا وأنا أسير، وعلّقته على كتفي؛ وكان الأمر بعد ذلك يسيرًا، فتسلّقت العمود الآخر ناحية الجسر، وقطعت السلك مرّة أخرى بمثل تلك السهولة، ولم يشعر أحد بما فعلت، ربما لو كانوا في حاجة لسلك البرْق لأدركوا وقوع عطلٍ ما، وحينئذ يكون قد فاتهم القطار.

وبينما كنتُ أغذّ السير عائدًا بحذَر من حيث أتيت كانت تنتابني سعادة غامرة لا توصف، حملي ثقيل، لكن هل يبالي من يقوم بعملٍ مفيدٍ يسعده؟!

أريد أن أرى الفخر على وجه أبي عند عودتي بالأسلاك ووضعها بين أيديهم، أريد أن أُشعِر أبي بسعادةٍ لِأنْ ربَّى شجاعًا أيّما شجاع، وأيضًا فليس لأيّ فتى أن يحظى بمديح القائد، فكلما دار هذا بخلدي طار بي شعور يبلغ بي أعمق الأعماق...

* * *

في غُرَّة تلك الليلة أقبل ولدي شرف وعلى كتفه الأسلاك، فغدا الجَزَع دهشة، فلطالما توجّست ريبةً بعد أن ذهب قائلًا: من أين يجد ويأتي هذا الفتى المجنون بسلكٍ؟ وتارة أخرى كنت أحنَق على نفسي أيضًا قائلًا: لِمَ غرَّرتُ بالفتى الصغير وحده؟

حقًّا إن المصيبة والسلامة تأتيان على حين غفلةٍ، لكن الأمل هو الأمل، فواجب الإنسان أن يتعلّق به مهما ضَؤُل، ولكم وكم كنا نتلوى على أحرّ من الجمر يحدونا أمل كهذا...

إنها لسعادة لا توصَف وأنا أحتضن ولدي وقد كوّم السلك بين أيدينا، وقد احتضنته بقوة بعض الشيء حتى إنه قال لي: أوجعتني يا أبي!

وقام السيد عُكَّاشَة بهري لِيُهنِّئ ابني، وقال وهو يقبله من جبهته: عهدٌ عليّ، إذا ما وضعت الحرب أوزارها، وطهّرنا وطننا من رجس العدوّ، فلسوف أمنحك وِسام المحارب، فقرَّت عينُ قرّة عيني بهذا أكثر فأكثر.

ويوم أن كنّا في الخنادق، ولم يكن لنا أن نبرح أماكننا، كنا نتناوب الحراسة ليل نهار، وكان ولدي يُحضر الطعام الذي أعدّته لي أمّه العزيزة، وبينما كان يمرّ من منطقة كُمُوشْ كَاسْتَل إذا بإحدى رصاصات العدوّ المشؤومة -التي انهمرت كالأمطار- تخترق جسد ولدي الصغير، فسقط وظلّ هناك بعيدًا، وقد نزف دمًا أرْوَى الثّرى، ولم يكن يعلم به أحد ليساعده حينئذ، فكلٌ منهم يبكي فتاه، وقد نجا أحد الفتيان ممن كانوا بجانبه فأخبرني الخبر، حينئذٍ علمت...

ذهبت، فوجدت عزيزي شرفًا يسبح في بركة من الدماء، كانت في يده اليسرى لُفَافة من طعام قد أمسكها بإحكام، وعيناه مفتوحتان، وتعلو وجهَه ابتسامة عذبة لم أرها من قبل حتى يومي هذا.

والمأساة -ويا لها من مأساة- أنّ ابني لم يستلم وسام المحارب بعد، فكأنّه استبدل به وسامًا أعظم، وسام الشهادة الذي يرقى به في مرتبة تلي النبوة، فلك الحمد ربّي أنْ اختصصته من بين عبادك لمَّا وجدته جديرًا بفضلك.

استشهد ولم يُسلِم أُذنيْه

كان يجلس في العريش تحت ظل شجرة التين، شارد الفكر، مهمومًا، أصابته شظية فأصابَتْ قدمه اليسرى وجرحته جرحًا غائرًا، بادئ الأمر خشي الأطباء أن يصبح الجرح غرغرينة، لكن لم يكن ما كان على قَدْر تخوّفهم، فواظبوا على العلاج دون أن يضطروا لقطع قدمه؛ لم يَعُدْ قادرًا على السير إلا بعكّاز، فأرسله قائده إلى قريته ليُريح أعصابه؛ ولم يكن أحدٌ يعلم متى تتحسن قدمُه، وكان الأطباء يرفعون من معنويّاته قائلين: لن تمضي ثلاثة أشهر حتى تستردّ قوتك كما كانت، إلا أنّه لم يكن متفائلًا كثيرًا بهذا، فاقتعدَ شعورُه بالعزلة عن جبهة القتال حزنًا وأسًى في قلبه؛ ولم تغِب عن مخيّلته -ولو لحظة- مآسٍ خلّفتها الحرب في فؤاده، ومنها استشهاد أقرب أصدقائه أمام عينيه؛ كان يستيقظ بعض الليالي وهو يتصبّب عرقًا، وكأنَّ جاثومًا يكتم أنفاسه، فيردد كلمات طالما كان يردّدها عند استيقاظه فجأة: "هجوم، الله الله..."، وتلك الكلمات تشير إلى أن نصف فؤاده كان ما يزال في "جَنَاقْ قَلْعَة" يتحسر أَنِ اضْطُر لترك أصدقائه من خلفه، فيوبخ نفسه قائلًا: وهل سأنتظر أَن يتحقّق النصر هنا بعكازي هذا؟ ثم يقبض يده فيعتصرها ويقول: آه لو أن فرصة أخرى سنحت لأواجههم.

كانت آخر أيام الصيف، وإذا ما حاول أحمد أن يساعد أخاه الأكبر أحيانًا، تأبط ذراع أخيه، وشدّ على وسطه بإحكام، ليطوف به في حديقة علِقها فؤاده، فكان يجد فيها طعم ما ألفه من ثمرات الكروم التي حان قطافها، وما أينع من ثمرات التين وحَبّ الرمان، ومن ثمرات السفرجل ذات الشُّعَيْرات الصفراء التي لم تنضج بعد.

كان من الواضح أن أخاه يبحث عما يواسيه بذكريات عاشها من قبل، عاد به إلى ذكريات شبابه الأولى، فتخيّل طفولته في المياه المزبِّدة للجدول الذي يتدفق في خرير هادر، كان يتمدد مستلقيًا على ظهره في ظل شجر الدُّلب ذي الأوراق الضخمة، ويشاهد البلابل التي تتأرجح هنا وهناك بألوانها الصفراء والرمادية على الأغصان التي تهتز بلمسات الرياح الخفيفة، كان صدى طيور التين والجداول والشحرور يتناغم مع تدفق الجدول بخريره؛ كلّ هذا كان في الماضي؛ ويكأن مشاعر طفولته كلها قد حفظت في صندوق من الخيال، وكأنها لباس بالٍ يتميز بلون وحياكة خاصة به، كان يحبّ زينب، وينوي أن يتحدث إلى أمّها ليطلب يدها بعد الحرب إن قُدِّر له ذلك، وعندما أصيبت قدمه هكذا، أرجأ طموحه حتى حين.

كان أحمد أقرب شاهد على ما عايشه أخوه الأكبر، لم يتركه ولو لحظة منذ يوم عودته، كان يرافقه، نعم إن أخاه يكبره بخمسة أعوام إلَّا أنَّه لم يعد طفلًا أو أنّه لم يعد يشعر بهذا، كانت قامته قد قاربت قامة أخيه، ولما كان عظمه ضخمًا كان يبدو أنه أكبر من عمره، كان في الخامسة عشرة من عمره، وإنَّه ليكتم سرّه في عروقه التي تنبض بقوة، وكلما كان أخوه يحكي عن جناق قلعة كانت تلك المشاعر تتقد أكثر فأكثر، فكأن رحًى تدور بداخله كلما خلا بنفسه بعيدًا، أو وضع رأسه على الوسادة...

المدافع التي تكشر أنيابها عن الموت في كلّ لحظة، واضطراب الجبال والحجارة وتزلزلها بعد كلّ قنبلة، والجثث التي تمسي أشلاء تتطاير عن اليمين واليسار، والمعارك التي تدور رحاها بالسِّجال والطّعان، كل هذا كان يهيج فؤاد أحمد الشابّ.

استشهد والدهم في أراضي البلقان، والآن عاد أخوه الأكبر وقد أصيب في جناق قلعة، لم يعد في بيوتهم بطل لم يقاتل لأجل الوطن، وفي إحدى الأمسيات التي ملأ الحزن فيها نظراتهم أفصح أحمد عما بداخله بعد الطعام، كان صدره -وهو يتكلّم- ينخفض ويرتفع كأنه منفاخ الحدّاد، تحشرج صوته، وارتجف فؤاد أمّه الذي طالما عانى كثيرًا في الماضي، ونظر إلى أخيه باهتمام بالغ، وقطّب حاجبيه الرفيعين، إذ كان يتملّكه الفضول عما سيقوله أخوه: "أمي، لسوف أستكمل مسيرة أخي".

تلاقت عينا الأمّ وابنها، "لا أفهم يا بُنَيّ، خيرًا! ما هذا العمل الذي ستستكمله؟"

شرح لها، كان يشرح بطريقة هادئة، وكم كان واثقًا بنفسه، وكالبركان الذي يثور ثم يهدأ سكَن أحمد، وقال: "لسوف أذهب إلى جناق قلعة يا أمي العزيزة، فمكان أخي هناك أصبح فارغًا، انظري، لقد صرت الآن قويًّا قادرًا، وأصبحت شابًّا يافعًا، ولم يعد هناك شاب في القرية أكبر مني، فجميعهم في جناق قلعة" ثم صمت.

كان أخوه فخورًا من صميم قلبه وهو ينظر إليه بغبطة، كاد يقف -لولا قدماه- ليعانقه بقوةٍ، ويقبله من جبينه ويقول: أخي أنت الأسد الجسور، أنت أنت...

وانتظر بقية الحديث...

نظر أحمد في عيون أخيه الأكبر وأمّه وكأنّه يحاول أن يستشف مدى تأثير كلامه، وشرع في الحديث مرة أخرى -كان صوته في مثل نعومة الحرير-: "أمّي العزيزة، ألا تجدين حبيبك أحمد جديرًا ولائقًا بجناق

قلعة؟" كان قلب أمّه مُثْقَلًا، فهي بين سعادة تنذُر فيها ولدًا آخر من بيتها للوطن وحزنٍ يسيرٍ على الفراق، شعوران يعتلجانها في آن واحد.

ولم يكن فؤاد أمّه ليقدر أن يقول: "لا"، فهو لم يقلها حتى ذلك اليوم، فعندما يكون الحديث عن الوطن، وعن المقدسات لا بد أن تُغمَض العيون على القذى، وقد حان الوقت فلتُغْمَض، فلا بد من الصبر، ولا بد للعيون أن تنتظر وتشاهد حسن الخواتيم؛ لقد تخالجتها المشاعر، فمن نظرات دامعة على ولدها، إلى تأملات في مكانٍ آخر، الصبر الصبر، إنّه نسيمٌ طيبٌ يطوف بالغرفة.

رتبت أفكارها التي احتشدت في ذهنها، وشاع في نفسها انفعال إبان وداع ولدها أحمد أحبّ الإخوة إلى أخواته الكبيرات، أحمد الذي ربّته مدللًا تزفُّه إلى جناق قلعة أيضًا، مثلما زفّت زوجها من قبل وولدها الكبير، كان وجهها يدعو له بالسلامة، وكان في صوتها نسيمٌ عليلٌ.

لقد ربَّت ولدَها –ومناها أن تكون والدة الشهيد– كما الأمانة العزيزة، ربّته بأدعية امتزجت بأغانيها لطفلها، قالت: "يا ولدي إنني نذرتك للوطن منذ طفولتك، وعند ولادتك كان شعرك أحمر، فقلت: هل خضبت الملائكة ولدي بالحناء، منذ وقت طويل وأنا أحلم برؤيتك جنديًّا شجاعًا، فالحَقْ بهم أيضًا، الحَقْ بموكب أبيك، وأخوالك، وأخيك الأكبر، فإن لم تذهب فلَبَنِي عليك حرام –ولا بدّ أنْ ستذهب عندما تبلغ سنّ العسكريّة– يا لها من سعادة! فالربيع حلّ في بيتنا ولما تتفتحْ أكمام وردنا".

عانقت الأمّ ابنها فبَكَيَا، وبَكَيَا، وبكى أخوه الأكبر؛ لقد صار له أخٌ

شجاعٌ، وما عادت أمانته بلا راع، لم يكن أحمد قد بلغ سنّ العسكرية بعد إلا أنّه وجد حلًّا لذلك أيضًا، فقال: "أليس لأخي مستندات، إذًا سأذهب بها"، سيرتدي ملابسه العسكرية، وسيذهب ليقول للوَحدة العسكرية التي كان فيها أخوه الأكبر: "ها أنذا قد رجعْت!"

وإذا ما وصل هناك فلن يردّوه مرة أخرى، لا ريب!

* * *

وعندما حانت ساعة الفراق نصحه أخوه الأكبر بما عليه فعله، وأعطى له مستنداته، وقال: رافقتك السلامة يا أخي!

وانطلق أحمد بمستندات أخيه في يده، مرتديًا الملابس العسكرية، واتجه إلى جناق قلعة، وسرعان ما نحّى قلة خبرته جانبًا، فهو لا يريد أن يثير الشكوك حوله.

حلّ الصقيع، وأصبح الليل قارسًا، والخنادق جدّ قريبة من بعضها، وربما يقع هجومٌ بالحراب في أية لحظة، ولم يكن أحمد قد شارك في هجومٍ بالحراب حتى الآن.

كانت القنابل التي وصفها أخوه بأنّها تكشر أنيابها عن الموت تتقاذف عن يمين الخنادق وشمالها، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يعايش فيها مثل هذا الدويّ، كانت مشاهد تذكّر بيوم القيامة، ففي المكان الذي تُقذف فيه القنبلة تتطاير الأجساد مع الرمال في الهواء، فتصبح أجساد الناس أشلاء ممزقة، أَذْرعًا، سُوقًا، رؤوسًا... ثم اعتاد على كلّ هذا كما الآخرون.

وما إن اندلعت نيران مدفعية العدو التي لا تنتهي ولا تنفد حتى

بدأت المناوشات والاشتباكات، وهكذا حانت هذه اللحظة التي كان أحمد يترقبها، لحظة يردّ فيها كيد العدو في نحره، لحظة يستكمل فيها ما لم يتمّه أخوه من قبل.

وهاج بركان بداخله عند الأمر "بالهجوم"، مِشْيته كانت كالجبال الشاهقة، مهيبة، شديدة البأس، كان أحمد يكبر في كل خطوة يخطوها، كانت الأرض تنزلق من تحت قدميه بينما السحاب يكسو صفحة السماء بكساء رماديّ، وأمواج البحر الساخطة تضرب الساحل بغضب، تقدّم أحمد دون أن يطرف له جفن، وشرعت الدماء تقطر من حربته البرّاقة، واحد، اثنان، ثلاثة، إنّه يطيح بكلّ من يقع تحت يده، ويقول: لن يكون الموت هكذا بسهولة، وكأنه يبحث عن شيء ويسعى في أثره، ثم يقع اضطراب بين صفوف الجند في أماكن مختلفة، وتلقى أحمد طعنة خنجر من خلفه، فلم يكن أحد ليقدر على مواجهته، فترنح لحظة، فتَلَته طعنة أخرى من خلفه، وطعنة وطعنة، وتساقطت فسيلة الورد في مقدمة الصفوف.

كثر المصابون والشهداء، فلم يشأ القائد أن يعرِّض الجند لخسائر أكثر من هذا... "تجمَّعوا، تجمَّعوا، انسحبوا للاستعداد لهجومٍ جديد".

حنِق الإنجليز وتفجّر غيظهم، فانتهزوا فرصة تراجع الأتراك، وقطعوا آذان الشهداء المعانقين لأرضهم -كانت هذه عادتهم وهم يستحسنونها-، ثم جعلوا من آذانهم قلائد طوّقوا بها أعناقهم.

كان أحمد يعانق الأرض ولا حَرَاك به، وبينما كان جنديّ إنجليزي بيده سكّين يتقدم نحوه، رآه قائد الترك من بعيد، ففزع، وصرخ:

"أحمد، أسلمتَ روحك، فلا تُسلم أذنيك".

هذا أمر.

وكان أحمد -وهو يعانق أرض الوطن- هامدًا بين الحياة والموت، وعندما سمع أمر قائده اعتدل ببطء، وتفوّه بكلمات متقطعة: "أمرك سيدي!" وتناول حربته بصعوبة، وهجم على الإنجليزي الذي يتقدم نحوه، وكانت معركة ضارية...

وكان ما كان، وتغلب على الإنجليزي في آخر رمَق، فارتسمت السعادة على وجهه -الذي أغرقته الدماء- لتنفيذه أمر قائده، نعم إن العِلج الإنجليزي لم يتمكن من انتزاع أُذني أحمد.

ورنا أحمد ببصره حيث الخنادق، فرأى قائده مبتسمًا كأنّه يهنئه ويبارك أَنفتَه وبطولته...

ومن بعيد، من وراء وراء، من قمم الجبال القصيّة التي أطلّت عليها الشمس كانت يدٌ تلوّح، تبدو أمامَه وكأنّها يد أمّه، وعن يمينها أخوه الأكبر وهو ينحدر من قمم الجبال يعدو، فشاع في نفسه وجوانحه رنينٌ رقراق من صوت أمّه ذي الأنفاس الدافئة: "ولدي، حبيبي هل أصابك من ضرر؟!"

ورنا بناظرَيه مرَّةً أخرى نحو قائده، وضاقت أنفاسه، فقال -وهو يغشى عليه-: "نفذت أمرك يا قائدي"، كان صوته خافتًا لا يكاد يبلغ مداه حيث قائده، وغربت شمس نهاره لتطلعَ حيثُ لا تغيب...

قضبان القطار

كانت خطوط القطار التي تصل ما بين مدينتيْ آدَانَهْ ومَرْسِينْ تمرُّ من قريتنا، لم نكن نشبع من سماع صوت العوارض الخشبيّة، وكانت مشاهدة أبخرة القطار الأسود -وهي تتصاعد متبددة في السماء الزرقاء- إحدى تسالينا التي لا نستغني عنها، كان القطار يمرّ في لهب الظهيرة، أي في الوقت الذي يقصر فيه ظلّنا، ولم نكن نبالي بحرارة الجوّ، فكان هذا يغضب أمّهاتنا.

كنا نتسابق "من يبلغ القضبان أوَّلًا؟" فكنّا ننطلق مبهوري الأنفاس لا نبالي بما ندهس من الأقحوان والزعفران تحت أقدامنا، وكنت أظل في المؤخرة غالبًا، فهناك صِبْيَة أكبر مني، فلم يكن تجاوزهم بالأمر السهل، ولكي أصل أحيانًا للقضبان أوَّلًا كنت أذهب دون انتظار وقت الظهيرة، وأبقى عند "آرْدِيجْ بِنَارِي" الذي امتدت عليه الظلال الرّطبة لشجر الحور الشاهق، وكنت أستمتع أكثر بتغريد البلابل المتقطع وهي تنتظر إدبار حرّ الظهيرة بين أغصان شجر الحور، وكانت طيور الهدهد ونقار الخشب وعصافير التين ترافق البلابل من حين لآخر.

ويومًا بعد يوم كانت أمّي تعتاد ألعابنا، وربما كان ذلك من ضيق الحيلة، فلم تَعد تعترض، لكن إذا حان وقت العمل ما كنا نستطيع أن نلعب بسهولة، فلا تقاعس أو تكاسل عن العمل، فستُحصد الزورع، وتُوضع في البيادر، وتُحرث الأراضي المعشوشبة، ويُفصل بين المعاليق والقَش، ثم يُوضع القمح في غرائر، ويُوضَع القَش في غرائر

كبيرة، خلاصة الأمر أنه كان يحدث اضطراب محبب يستغرق وقتًا ليس بالقليل.

كنت أتفهم المهامّ التي تكلفني بها أمي وأبي إلا أن طلبات أخي الأكبر بثلاث سنوات -التي لا تنتهي ولا تنفد "دُران أحضر ماء- دُران اجمع المناجل- دُران- دُران"- كانت تقفدني أعصابي، إلا أنني لم أستطع أن أعترض عليه.

كنت سعيدًا حينذاك رغم كلّ شيء، كانت وَقْفة أبي النبيلة وكلماته الواثقة تبعثان فيّ شعورًا بالأمان وكأنني أسند ظهري إلى الجبال الشاهقة، كنت أظن أن أمّي تحبني أكثر من إخوتي نظرًا لحديثها وكلماتها الحانِيَة ومجاملاتها بقولها "صغيري- ولدي دُران!"، وإذا ما آلمني عضو في جسدي أو مرضت فلزمت الفراش ظلّت أرِقةً لياليَ طويلة، حتى إنني ظننت أنها تحبني أكثر من إخوتي، وفي أوقات العمل كأنها كانت تحابيني.

كنت أحيانًا أمثِّل لأخي الأكبر صداعًا مزعجًا وأحيانًا أغدو له صديقًا؛ وكانت ألعابنا مشتركة، فكنا نتصارع في المروج، ونذهب للسباحة في الجدول الذي يمرّ من أسفل القرية، كانت الأوقات التي نَمضي فيها في مصارعتنا دون استسلام -رغم هزيمتي أمام أخي- تُخفي سعادتنا كصرةٍ تفوح بعطر زَهرة اللاوند المركّز.

والآن صار كل هذا من الماضي، تبدّل كل شيء في المنزل فجأة، تغيرنا نحن أيضًا كما المواسم، وأصبحت أيامنا زمهريرًا، ولم يعد أخي يعتني بي كما كان من قبلُ، وعند الموقد الذي يتقد مُمَعْمِعًا راح أبي وأمي بُعَيْد صلاة المغرب يتحدّثان فيما يؤرِّقهما، فكان أبي يقول:

"جفَتْنا الرّاحة يا سيدتي، ويبدو أنه سيسيل بحر من الدماء، والأخبار التي نتلقاها من المدن المجاورة ليست بالسارّة، خبَّرنا رمزي البائع المتجوّل الذي أتى إلى القرية حديثًا أنّ الدول الكبرى قد قسّمت أراضينا فيما بينها، وأن الفرنسيين سيرسلون وَحدة عسكرية إلى آدَانَهْ، ووَحَدات أخرى ستأتي لاحقًا".

* * *

وجاء اليوم الذي هبت فيه رياح الشك الباردة، فتجمّدت منها شغاف قلوب أهل البيت، وغدا المحذور واقعًا، واحتُلّت آدَانَهْ، وشُرع في إرسال قوات الطلائع إلى مَرسين، وودّع القادرون على حمل السلاح في قريتنا مَن خلَّفوهم وراءهم، وانطلقوا في الطريق في يوم مَطير؛ كنت شاهدًا على انهمار الدموع من عينَي أمي -وقد ذوَت ملامحها- في ذلك اليوم الذي وُدع فيه الأبطال إلى جبهة القتال، كانت دموعها تختلط بالمطر، حرَصَتْ أن لا يرى دموعها أحد، فراحت تمسحها بطرف حجابها المطرّز، لكني رأيتها وعايشت أوقاتًا ملأى بالحزن، رحلت فيها السعادة من قلبي الصغير؛ كان أبي يحاول أن يحافظ على رباطة جأشه، فهو ليس بالذي يذرف الدموع أمام جموع الناس، وذهب أخي الأكبر أيضًا مع أبي، كان الفتى الذي يغبطه أهل القرية ضخم البنية، رشيقًا قَلِق الوضين، وكان من المصارعين الذين لا غنى عنهم في حفلات الزفاف، كما كان قنّاصًا ماهرًا، وربما كان يصيب كلّ ما يرمي من كثرة شغفه بالصيد، حتى إنه كان ينال من الطير في سمائه في أغلب الأحيان.

كَبِر أخي الأكبر الذي كنت أتصارع معه حتى الأمس القريب،

وغدا رجلًا كبيرًا، وتحولت البراءة السمراء في وجهه إلى حزنٍ عميقٍ، فاغتبطت من حاله، وكم تمنيت حينها أن أكبر مثله!

كان ميدان القرية مزدحِمًا، كنت أستشعر انفعالًا سارًّا في أولئك الذين ينضمون إلى السرايا، أما الذين خُلِّفوا فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحُبَت.

ومعلوم أن العيون سترقب مِن وراء الجبال أخبارًا حميدة وأخرى بغيضة، وسيصبح من يحمل خبرًا إلى القرية نبضًا لحياة القلب.

تسلق الإمام الحاج حسن أفندي إحدى الصخور وشرع في الدعاء، وتجمع القرويون حوله يقولون: آمين، وكان تأمين الدعوات مليئًا بالخشوع والرجاء والانفعال، بينما كانت نبرات الأصوات المرتعشة تعكس جيشان القلوب.

شاركت النساء في الدعاء من خلفنا -نحن الفتية-، وكان الزمهرير مخيمًا على قلوبهن أكثر وأكثر، أطالت أمّي الدعاء في صلاتها في مساء اليوم الذي رحل فيه أبي، كان قلبي الصغير لأوّل وهلة يدرك ما يحدث، ولكم أَرعد هذا الرحيل القلوب لأنه رحيل أقرب إلى الموت، فكيف تكون الحياة دون أبي؟

أخلدت إلى النوم ذلك اليوم مبكرًا، وسحبت الغطاء الصوفيّ فوقي، وانطلقت في دنياي الصغيرة إلى عالم أحلام خالدة، وشرعت أرسم في أحلامي بعد هطول الأمطار كيف يكون هذا الذي يدعونه "قوس قزح" بل هو قوس الله، وطردْتُ سحب الأمطار الكثيفة التي غطّت السماء وجعلت مكان السحب الرمادية قوس الله، وبدأت بيني وبين نفسي بمسابقة عدْوٍ كتلك التي كنّا نقوم بها مع أصدقائنا

على قضبان القطار، أركض، وأركض، سماؤنا مشمسة وترسل مطرًا خفيفًا، ولقد بلّل الندى شعري الطويل الأسود المتموّج على الدوام، فلم يعد كهيئته هذه المرّة، ومررت بأسفل قوس الله أنظر إليه وأجري، أريد أن أكبر مثل أخي، أريد أن أصير رجلًا كبيرًا، فأنتزع بندقية، وأهاجم بها الأعداء.

* * *

ومرّ وقت طويل، وما زالت المناوشات مستمرةً بين الطرفين، وراجت إشاعة بأن جنود العدو سينتشرون في الوطن بالقطارات، فهل ستجلب القطارات السوداء -التي نتسلّى بها- جنودَ العدوّ الذين عزموا على إظلام حياتنا؟

من هنا سَتمرّ القطارات -التي كنا نضع فوق قضبانها عملاتنا المعدنية فتسويها بعد ذلك- لتقضي على طفولتنا، وأحلامنا التي لا تنتهي!

وفي يوم جلسنا في ظل المسجد مع أطفال القرية نتحدث، وكل منا متغضنً الأسارير، فقد هجم الشتاء قارسًا، كان الجوّ في الخارج باردًا إلا أننا لم نكن نقدر أن نمكث في البيوت أيضًا، كنا نتساءل: هل هناك من لديه خبر بشأن والدي؟ كانوا جميعًا كلٌ يتحدث عن البطولات التي يظهرها والده، أو أخوه، أو خاله، أو عمّه.

قلت بعد برهة: "أليس علينا أن نفعل شيئًا نحن أيضًا؟" فأجاب ابن العمدة بيأس: "وماذا عسانا أن نفعل؟" وكان حماسي قد اشتعل، فصحا أصدقائي حينئذ، ويئس ابن العمدة وتحول لفضوليّ عندما رأى حماستي، كانوا جميعًا يَحدِجونني بأبصارهم وكأنهم يقولون: "هلمّ قل!" فقلت: "القضبان، نتولى أمر القضبان".

لم يفهم أحدٌ شيئًا، وقال ابن عمي: "وكيف هذا؟ وماذا سنفعل بالقضبان؟"

وأصبح الجوّ مثلما رغبت تمامًا، فقد اتسعت العيون وحُبست الأنفاس، واسترعى ما سأقوله اهتمامهم جميعًا؛ "ألم نسمع في الأيام الماضية أن العدو سيرسل جندًا أكثر بالقطارات إلى هنا، وأنهم سيرسلون بهؤلاء الجند إلى أرباع البلاد فيحتلونها؛ إذًا فلنقم بعرقلتهم حتى ولو برهة من الزمن؛ كان أصدقائي يستمعون إليّ وكأن على رؤوسهم الطير يخافون أن تفزع، فاستعذْت أنفاسي واستطردت في حديثي: "نفكك القضبان..."

كانوا جميعًا يحدّق بعضهم في بعض بدهشة، وساد صمت غريب لحظة، ثم صاح ابن عمي خليل قائلًا: "فلْتَحْيَ يا دُرَان!" وتبعه الباقون.

أخذنا نقلب الأمر من كل الوجوه بعقولنا الصغيرة، والتففنا حول الموقد نستدفئ، بينما أخذ حماسنا يشتعل، وبدأت الشمس تطل بوجهها من وراء السحب الرمادية.

قررنا أن نأخذ اللوازم الضرورية في الصباح التالي وأن نشرع في العمل عند مخرج النفق، وقد حضر معنا أيضًا صِبْية القرية الآخرون ممن سمعوا بعزمنا على القيام بأمرٍ كهذا، فصرنا خمسة عشر صبيًّا، وكانت بأيدينا معاول وفؤوس ومجارف، وانهلنا بها على القضبان، عملنا حتى الظهيرة، واقتلعنا القضبان على مسافة عشرين أو ثلاثين مترًا، وأخفينا القضبان التي اقتلعناها تحت الأشجار، كنا نخفي القضبان بعيدًا ما استطعنا، واقتلعنا العوارض الخشبيّة التي كانت

تحت القضبان أيضًا، وأخذناها واحدةً واحدةً فأخفيناها في مكانٍ آخَر، وأحرقنا بعضها أيضًا لنستدفئ.

وفي اليوم التالي اقتلعنا القضبان التي كانت في شرق القرية أيضًا، كان هدفنا أن نمنح رجالنا وقتًا وفرصة أطول ولو قليلًا، فكنّا نستشعر سعادة لا توصف لأننا قمنا بشيء لأجل الوطن.

كنا نقوم بهذا العمل من ناحية، ونطّلع على المعلومات الجديدة عن مجريات الحرب من الفتية الذين كانوا يحملون الطعام إلى جبهات القتال من ناحية أخرى، وكانت شجاعة أخي الأكبر تتناقلها الألسنة، فقد استحوذ على إعجاب قائد السريّة في زمنٍ وجيز بحركاته الرشيقة، ورمْيَاته الصائبة، كان أبي والعمدة قد نجَوَا بجروح طفيفة من قتالٍ تكبد فيه العدوّ خسائر جسيمة، وكانت معنوياتهما مرتفعة، وكلّ منهما يؤمن تمامًا بأننا سنطرد العدوّ من أراضينا عاجلًا أم آجلًا.

وبينما تهللت أساريرنا بالأخبار السارّة من جبهة القتال إذا بواقعةٍ تُشيع فينا السعادة أكثر، ففي يومٍ من الأيام ظهرت في الأفق أدخنة سوداء تتصاعد من قطارٍ أسودٍ كان قد وقع بأيدي العدوّ، وبينما القطار يلِج النفق مسرعًا إذا به يرتطم بالأرض بشدةٍ عندما انتهت القضبان عند مخرج النفق! فانقلبت بعض عربات القطار، كان هذا اليوم يوم عيد عند أطفال القرية...

الجسر

احتدمت الأجواء كثيرًا في مدينة مَرْعَش، وأوشكت الحرب أن تبدأ؛ في البداية تحدث كبار البلدة عن الإنجليز، وبعد ذلك بفترة تحدثوا عن الفرنسيين... لقد تسبب مجيء الفرنسيين في إحداث ضجة كبيرة من كل مكان وامتدت حتى القرى البعيدة.

هجرَتْ منزلَنا تلك السعادةُ التي ألفناها؛ فقد غدا والدي مضطربًا لدرجةٍ لم أعهدْه عليها من قبل، وعين أمي قلقة كالغزالة التي تبحث عن رَشَئِها الضال في الأقطار البعيدة، وبدأ عمي وخالي يختلفان إلى منزلنا كثيرًا.

ظهرت بوادر الشتاء الأولى، فغطت الثلوج قمم الجبال التي كنت أشاهدها عندما أستيقظ كل صباح، وأعاقت هذه الأماكن المرتفعة العبور.

راجت شائعات سلبت من قلوبنا السكينة، كنت أسترق السمع لحديث والدي من خلف باب حجرة الضيوف المفتوح قليلًا، وأحمل لهم الشاي الجبليّ والقهوة من وقتٍ لآخر، فكنت أتخذ من هذا العمل حجة للاستماع فأتباطأ في القيام به، وأتثاقل في إتمامه.

كانوا يقولون: "الأمر يزداد سوءًا؛ فالأرمن الذين نعرفهم حتى الأمس أصدقاء لنا، قد تمردوا بمجيء الفرنسيين، ولم يعد بالإمكان السيطرة عليهم".

تعدى الأرمن حدودهم كثيرًا بعد مجيء الفرنسيين، وقع ضحايا كمينهم بعضُ القرويين الذين كانوا ذاهبين للتحطيب فقتلوهم، وأخذوا يضايقون النساء أثناء خروجهن من الحمّام.

قال عمي: "يبدو أنهم لم يعتبروا من العصيان المدني المعروف بـ"عصيان الزيتون"، وسيتم خداعهم من جديد، فيلقون بنا وبأنفسهم إلى التهلكة؛ فلا بد أن نلقنهم درسًا قاسيًا هذه المرة، ونريهم عاقبة ثقتهم بالفرنسيين وأذيتهم للشعب".

فقال والدي: "الدين يُنتهك، والعرض يستباح، لا يجوز أن نقف مكتوفي الأيدي، علينا أن نقوم بعملٍ مفيدٍ نحن أيضًا"؛ وكانت كلماته كالشرر الذي يتصاعد من الحريق المشتعل ويتناثر في الفضاء.

قدَّمْتُ لهم القهوة ذات الرغوة التي أعدتها والدتي على نار الفحم، ونظرت نظرات خاطفة إلى والدي وهو يتحدث؛ فقد بدا وكأن العمر قد تقدم به عشر سنوات، تغضنت جبهته وأصبح لون وجهه لون الغبراء التي لفحتها حرارة الشمس، وانحنى عنقه يسارًا وكأن رأسه قد سقط على قلبه؛ ولم يختلف حال خالي عن حال والدي، فقد كان مثله هو الآخر، واحتقنت عيناه بالدموع؛ فقال عمي: "علينا أن ننضم نحن أيضًا إلى "القوات الشعبية"، ونقف بين يدي السيد أصلان ونرجوه قائلين: "ها قد جئنا، فكلفنا نحن أيضًا بمهمة"؛ كان كما لو أن حجر الرحى يدور بداخله، وكان صوته متهدِّجًا.

وعاودتُ بعد أن خرجت من الغرفة لأسترق السمع إلى حديثهم، لم أكترث لتحذيرات والدتي وهي تقول: "إن التنصت خفية من وراء

الأبواب هكذا عيب"؛ فقد تغضنت أساريري أنا الآخر، وليس بوسعي الوقوف غير مبالٍ.

وفي النهاية اتخذوا قرارًا بالانضمام إلى وحدات المدينة قائلين: "اليوم احتُلت مَرْعَش، وغدًا ستكون الكَرّة على البلدات والنواحي والقرى، وعندئذ يُنتهَك كلٌّ من الدين والعرض، إذا سقطت مَرْعَش فسيتطاول علينا هؤلاء الوُضَعاء عاجلًا أم آجلًا"، فصاح والدي قائلًا: "الموت أهون عليّ من أن أسمح لهم بتدنيس المقدسات وانتهاك الأعراض".

وصلت صيحات والدي المرتفعة إلى والدتي وهي في المطبخ، فنظرت إليّ نظرات دامعة، ثم مسحت عينيها السوداوين بطرف حِجابها.

قال خالي: "نموت ولا نستسلم للأسر".

وفي اليوم التالي خرجت أنا أيضًا مع الشباب القرويين، كان إقناع والدي أمرًا عسيرًا؛ في بادىء الأمر قلت له: "سوف أذهب معكم"، فنظر إليّ نظرات حادة مقطبًا حاجبيه وقال: "اجلس ولا تبرح مكانك، أيكون المنزل بلا رجل؟ لقد تركناه لك، كن دائمًا بجانب والدتك وطَوْعَ أمرها"، قال هذا إلا أنه لم تكن لدي نية البقاء بأى حال من الأحوال.

كان لا يزال في قلبي الصغير أثرٍ حكايات النضال التي سمعتها من جدتي عن الشجعان لا سيما بطّال غازي، وسيدنا علي (رضي الله عنه)... وغيرها من الحكايات التي في نهايتها ينهزم الأشرار؛ فقد أحيت في خيالي صور الأبطال الخياليين الذين يتصدون للعمالقة خلف جبل قاف.

تنحيت جانبًا وأنا عابس ونكست رأسي، ولكن إمام قريتنا الذي كان يتابعني من بعيد وبَّخ والدي وأنّبه قائلًا: "ما لك وللفتى؟ اتركه فليأت معنا، ليمد يد المساعدة هو أيضًا، وليسُدَّ النقص، لينقل طعامنا وشرابنا، كلف الفتى بأمر ولنرَ، عَلَّه يقوم بعمل بطولي يخجلك ويخجلني".

عندئذٍ عدَل والدي عن قراره، ولم يردّ طلب إمام البلدة، ومضى إلى جانبه ولم يستطع أن يرفض قوله.

تخلف عن الخروج الشيوخ الواهنون، والنساء والأطفال، أما أنا فقد قبلوني في السرية وألحقوني بمجموعة الشباب؛ وذلك لكوني في الرابعة عشْرة.

عندما بلغنا المدينة، كانت وطأة الحرب قد اشتدت، وتسلم قيادتنا نحن القادمين من القرى السيد النقيب صِدْقِي، وهو رجل طويل القامة، عريض المنكبين، ذو شارب، عظْمتا وجنتيه بارزتان، وحاجباه الثقيلان الأسودان متقاربان جدًّا، كان رجلًا محبوبًا، وتزداد هيبته عندما يرتدي بِزَّته العسكرية التي تلائمه تمامًا؛ لقد أحببته منذ اليوم الأول.

كان أمامنا جيش عدو منظم، أما جيشنا فما هو إلا وحدات عسكرية مكونة عشوائيًّا ممن لم يتلقوا تدريبًا، وكانت الحرب تقاد بتوجيهات بعض القادة، وواقع الأمر أننا لم نتلق تدريبًا، إلا أننا كنا نملك الإيمان، علاوة على أننا نعرف المنطقة جيدًا.

لم تكن لدينا تلك القذائف التي يملكها العدو؛ إلا أن كلًّا منا كان واثقًا بنفسه؛ فسوف يُجلى الأعداء عن المدينة مهما كلف الأمر،

راجت بين السرايا مقولة كانت تتكرر بكثرة في تلك الأيام وهي: "لن يستطيع الأعداء أن يهنؤوا بمَرْعَش قبل أن نموت! لن نترك المدينة للعدو ولو لم يبق سوى مَرْعَشي واحد، لن ينعم الأعداء بالمدينة إلا بعد أن يقضوا علينا ويهزمونا".

كثرت أعمالي أنا أيضًا، كان السيد النقيب صدقي يرسلني إلى القصر الرسمي للكاتب محمد أفندي لتوصيل الأخبار، وكنت أسير بشكلٍ سرّي كأنني ظُلَّة تتسلل بإزاء جدران المنازل، وأحيانًا كنت أتحرك بسرعة شديدة حسبما يتطلبه الوضع.

كان الرصاص يمطرنا عن اليمين وعن الشمال إذا صدر صوت طفيف أو حركة؛ ولهذا كنت على حذر شديد، ولكي يمكنني الخروج؛ كان لا بد لي من معرفة كلمة السر، فقد كان أصحابنا يخصصون كلمة سر جديدة كل يوم زيادة في الحيطة؛ فبعض الأرمن الذين يعرفون المدينة جيدًا كانوا يبدلون ملابسهم ويتسكعون في الشوارع لتحقيق أغراضهم الدنيئة؛ ولهذا كان الخروج دون معرفة كلمة السر أمرًا مستحيلًا في ذلك الوقت؛ فهم يقتلون الشخص في الحال أيًا كان، حتى إنهم ذات مرة رأوا خيالًا يتحرك في ظلمة الليل الحالكة فسألوه عن كلمة السر، وعندما لم يجب في المرة الثالثة أمطروه بالرصاص، وعندما حل الصباح إذا بهم يرون كلبًا ملقًى على الأرض، وقد جفت دماؤه، وتحول جسده لمصفاة.

عندما سمعت بهذه الواقعة حزنت كثيرًا على الكلب المسكين، وتذكرت كلبي قَارَابَاش الذي يحمي أغنامنا في الهضاب، إلا أنني ضحكت خفية من الوضع الذي يعيشه أصحابنا، وقلت: "يا إلهي

علينا أن نحتاط؛ لئلا نذهب سدى نحن أيضًا"، ومنذ ذلك اليوم لم أخرج بدون معرفة كلمة السر، وذلك لئلا أضيع سدى، فما كنت أحب أن تذهب روحي هباء.

كنت أحمل الرصاصات للمقاتلين في الخنادق، وأحيانًا عندما يذهب أحدهم للصلاة آخذ مكانه وأمسك سلاحه، وكنت أحمل لهم الطعام مرة في اليوم، في الحقيقة إنني كنت أقوم بعمل كثير.

أحيانًا كان صدقي بك يجاملني نظرًا لما أقوم به من خِدْمات، وعندئذ كان يغمر الفخر والدي، وعندما تلتقي نظراته بإمام البلدة كان يزداد خجلًا على خجله، بالطبع فأنا مَدين للإمام كثيرًا بمجيئي إلى هنا.

أقبل موسم الشتاء قارسًا، وكان الجوّ باردًا، غطّت الثلوج كل مكان حتى إنني كنت أحيانًا لا أشعر بأصابعي، كان والدي يفرك بالثلج، وكنا نحن لا نكثر من إشعال النيران لئلا يتضح للعدوّ مكاننا.

أخذت وطأة الحرب تشتد يومًا بعد آخر، كانت القنابل تمطر المدينة من ثكنات الفرنسيين، فتحترق بعض مناطق المدينة المشتعلة، عند ذلك انتشرت بين السرايا شائعة تقول: سوف تصل وَحدات دعم للعدو؛ فثبّطت هذه الإشاعة همة الجنود.

ذات يوم قال لي رئيس سرايانا: "النقيب يدعوك"، عندئذ دق قلبي ارتباكًا ولكن سرّني أن هناك مهمة جديدة، فذهبت إليه مسرعًا، فاستقبلني بعاطفة الأبوة مثلما يفعل دائمًا، كنت قلقًا، تُرى ماذا سيقول؟ فقال: تقدّم يا سيد علي، وهو إنما يخاطبني هكذا عندما يكلفني بأمورٍ مهمة؛ فهو لم يدعني باسمي فقط بل أضاف أيضًا عبارة "يا سيد" التي يختص بها الرجال الكبار؛ وهذا ما جعلني أشعر بأني

ذو قيمة، وأحسست بدبيب الشجاعة يسري كالأمواج في أعماقي، وتملكتني فكرة أنه لو طلب مني صدقي بك أن أموت لفعلت، فقال: "اسمع يا بُنيّ، سوف أُوكِل إليك عملًا كبيرًا، وهو بالنسبة لنا مهمّ جدًّا، سوف تأتي قوات إمداد للأعداء، وبحوزتهم عربات محملة بالقذائف، علينا أن نماطلهم ولو فترة قصيرة، نحن بحاجة إلى الوقت، يقولون: الوقت كالسيف، وهو كذلك بالضبط، ووفقًا لتحرياتنا؛ فإنهم سوف يصلون إلى المدينة غدًا، لن يعرف أحد بشأن المهمة التي سوف أسندها إليك، مهمتك هي أن تفجر الجسر الذي يقع في جنوب المدينة"، وقبل أن ينهي صدقي بك كلماته غمرني الانفعال؛ فليست هذه المهمة كغيرها من المهام، إنها ليست توصيل الأخبار أو حمل المؤن، وإنما هي تقتضي مسؤولية كبيرة جدًّا؛ فإني سأفجر جسرًا ضخمًا، وأتسبب في إحباط آمال الآلاف من جنود العدو.

أوصاني السيد صدقي أن أعتني بنفسي قائلًا: "ارتدِ رداء ثقيلًا، واستعدّ، سوف تذهب عندما يسدل الليل ستاره، ولا تأخذ معك سلاحًا؛ يجب ألا يرتاب في أمرك أحد، أخْفِ الدِّيناميت الذي سأعطيك إياه جيدًا تحت وشاحك، وإذا سألك سائل في الطريق، فقل: أنا ذاهب إلى جدي في القرية، اتفقنا؟"

طبعت في ذهني كلَّ ما قاله النقيب السيد صدقي كلمةً كلمةً؛ فخرجت في منتصف الليل، وحتى والدي لم أخبره عن وجهتي، فقد حسب أني ذاهب لتوصيل الأخبار كالعادة.

سِرت بمشقة بالغة وسط الثلوج التي غطت أماكن كثيرة بارتفاع نصف متر، كنت أسمع بين الحين والآخر عُواء كلب يأتي من بعيد؛

فقرأت كل الأدعية التي أحفظها وشعرت بالسكينة، فذاب قلقي وخوفي كما يذوب الثلج عند طلوع شمس الربيع.

وصلت إلى الجسر الحجري قرب السَّحَر، وكان المكان حالك الظلام، في البداية وقفت قليلًا لكي أسترد أنفاسي، ثم أخذت أجول في المنطقة إلى أن وجدت مكانًا آمنًا لأختبئ فيه.

أتممت استعداداتي، ووضعت الديناميت أسفل الجسر كما أمرني النقيب، ثم أشعلت الفتيلة، بعد ذلك ابتعدت بسرعة من هناك، وعدوت بكل ما أوتيت من قوة، اختبأت خلف الصخرة الكبيرة التي اخترتُها سابقًا، وكانت هناك مسافة كبيرة جدًا بيني وبين الجسر، ولكني مع هذا تواريت خلف الصخرة لأحمي نفسي تحسبًا لأي وضع.

وجلسْتُ أراقب الجسر من هناك؛ ظهر أولًا شرَر، أعقبه انفجار هائل دوَّى في المنطقة، فتناثرت قطع الحجارة في كل مكان، وتساقطت عن يميني وعن شمالي أحجار في حجم قبضة اليد، وغطت الجسر سحابة من الغبار والدخان.

غمرتني السعادة وقلت: "لك الحمد يا ربِّ! حمدًا لك أنْ منحتني شرف القيام بهذا العمل، وأكرمتني فأتممته بدون أن تشوبه شائبة".

* * *

في ذلك اليوم وصلت إلى السرايا وقت الظهيرة، وكنت مرهقًا تَعِبًا؛ فقد سرت طوال الليل، ولكن تعبي زال ولم يبق له أَثَرٌ عندما استقبلني مَن كانوا بانتظاري بالتكبيرات والتهليلات.

لَكَم كانت لحظةً جميلة! قبّلني النقيب على جبيني وباركني؛ فطار

قلبي في غمرة من المشاعر تركَتها حرارة قبلته على جبيني، وبينما كان يباركني، إذ بي ألمح والدي وقد كان متأثرًا هو كذلك، وبدا على وجهه افتخاره بولده؛ فقد كان فرحًا مسرورًا.

وعندما قال أحد الشيوخ في السرية: "لم يحظَ أحدٌ بتربية أسدٍ كهذا"، ردّ عليهم قائلًا: "أستغفر الله، إنّا لا نملك من الأمر شيئًا، إنما هو فضل من الله".

* * *

فقدت والدي قبيل انتهاء الحرب؛ فقد استشهد برصاصة في صدره بينما كان يقاتل دون خوف، كان ذلك عندما تقدم بنفسه على من كانوا معه ليقوّي عزيمتهم.

ومنذ ذلك الحين لم يتركني السيد النقيب صدقي أبدًا، وقد ازدادت عاطفته الأبوية نحوي، ولكن لم يكن أحد ليعزيني عن والدي؛ فقد كان قلبي يئن حنينًا إلى أبي، وكأن ما بي من حنين إليه شلالات من الأنهار تضرب الصخور هنا وهناك.

وبعد جلاء الفرنسيين عن المدينة، تبناني النقيب صدقي رغم إصرار عمي، إلا أنه لم يتركني له، وقال: "إني أُعِدُّه لطلب العلم، ولسوف يكون رجلًا ذا شأن؛ فأنا أرى فيه أيام شبابي، ولا يرضى قلبي أن يضيع هذا الشابُّ هباءً منثورًا".

وعد، فوفّى، وتخرَّجتُ بمعونته وتشجيعه في مدرسة "قُلَلِي" الثانوية العسكرية.

الأمانة الأولى

أخرج الجدّ من جيبه الساعة المسلسلة، ونظر قليلًا بعينيه اللتين خفَّت رموشهما ثم قال: "لقد تأخر الوقت كثيرًا، كيف لم ننتبه لهذا؟" ونادى ابنته المناضلة لِيُنْهِيَ ما تبقى من عمل قائلًا: "هيا يا بُنيتي، استعدوا أنتم أيضًا ولا تتأخروا، من المعلوم أنّ الأجواء ليست آمنة في مثل هذه الأوقات، جمّعوا حاجاتكم واذهبوا إلى المنزل في أقرب وقت".

لم يكن كامل يريد مفارقة جدّه، كان الجدّ يرتدي طربوشًا ورديًّا، وكان جبينه الذي ازدادت تجاعيده ينمّ عن سرٍّ غامضٍ لا يستطيع كامل أن يدرك كنهه، وفي يديه اللتين برزت عروقهما مسبحة بها تسع وتسعون حبة كهربية، وعندما يصمت كانت شفتاه تتحركان حركة خفيفة وكأنهما ترتجفان بابتهاج الكلمات المطلسمة التي يتلوها؛ ومن حين إلى آخر تراه يمسح لحيته الرمادية، وعندما تلتقي أعينهما تلوح على وجه كامل ابتسامة بريئة، فقد كان يرى جدّه الذي يرْقُبه في كل أحواله هذه وكأنه إنسان خبَرَه الدّهر.

ولسببٍ ما يمرّ الوقت مع الجدّ بسرعة مثلما تتدفق المياه، وهو لا يكَلّ ولا يمَلّ، فقد كانت اللحظات التي يقضيها معه تترك في ذاكرته خواطر جميلة، ويشعر بطفولته أكثر ويتدلل، وعندما يُربّت الجدّ على رأسه يشعر بنسمات الربيع تسري بداخله؛ وأيضًا فالقصص وحكايات النضال التي يرويها له جدّه كانت تخلق في نفسه مشاعر غير عاديّة،

وتغمره بالسعادة، فقد كان قلب كامل يستشعر الأمان بجانب جدّه وكأنه النبات في القارورة.

أخذت والدته تسرع بعد أن ذكّرها جدّه بالوقت، وسرعان ما رتّبت كلّ شيء، صَفّت الحُصر التي اكتملت في مخزن التحطيب، وحمَلَ كلٌّ من كامل وأمّه حزمة من البُوْص على ظهرهما عند ذهابهما إلى المنزل ليواصلا عملهما، وكان حِمْل كامل خفيفًا مقارنة بحِمْل والدته.

كان جدّه وجدّته دائمًا يحذرانهما بإصرار قائلَين: "احذرا، أَسْرِعا ولا تتباطآ في الطريق"؛ فالمدينة فقدَت أمنها وراحتها اللتين كانت تنعم بهما منذ سنوات بسبب مجيء الفرنسيين.

وارتسم على الوجوه وجومٌ غير مألوف، وبدا عليها ذهول غير معهود، واعترتها الدّهشة من قرار لم يقبل به أحد، فها هي ذي أرض الوطن -التي كانت تصدح فيها أصوات الأذان في أرجاء السماء- تُسحَق الآن بأحذية جنود العدوّ القذرة، بل سحقت معها أيضًا القلوب سحقًا، وكانت الأعلام التي لم يروها حتى ذلك اليوم ترفرف في السماء التي تتموج فيها راياتهم.

كان أهالي عينتاب من أطفالٍ حائرين، ونساء خائفات، ورجال قلقين يقولون: "لن يستمر الوضع هكذا".

مرَّ كامل ووالدته من أمام مدرسة عصمت باشا وكان في الجهة المقابلة من الطريق بناء من طابقين يستخدمُ الفرنسيّون طابقَه السفلي مخبزًا لهم، ويستريح فيه الجنود بعد عودتهم من الدوريّة.

وكان هناك ثلاثة جنود فرنسيون رأوا كاملًا ووالدته يمرّان من أمامهم وهما يحملان على ظهورهما البُوْص، فخرجوا من المخبز متفرجين يضحكون منهم ساخرين.

تسرّب الخوف إلى والدة كامل وأحسّت بوجود خطر يلاحقهما، فتقدّمت بخطوات صغيرة لكنها سريعة، كان ثوبها يتموج وهي تغطي وجهها بيدها، أمّا كامل فتعذَّرَ عليه اللَّحاق بوالدته.

حذرت الأمّ ولدها وكأنها أحسّت بالخطر المحدِق بهما قائلة: "هيا يا بُنَيّ، أسرِع قليلًا، أوشك الظلام أن يحُل"، فردّ عليها قائلًا: "أنا بجانبك، فلا داعي للقلق، نحن لا نخشى إلا الله، فلماذا القلق؟"

نظرت الأمّ إلى ولدها بابتسامة تحمل في طيّاتها حزنًا وفرحًا في آن واحد، وكان قلبها ممتلئًا برعدات ورجفات لا يعيها كامل، فتخيلت قدْر ولدها وهي تنظر إلى عينيه السوداوين وخديه ذوَي الغمازتين.

اقترب الجنود الثلاثة كثيرًا، وكان في مقدمتهم جندي أبيض، أزرق العينين، طويل القامة، فقال شيئًا بلغة لم يفهماها.

دبَّ الخوف في قلب والدة كامل، وشعرت بأنها غارقة في محيط من الألم المبرِّح، وفجأة تقدّم الجنديّ الذي تقدَّم رفاقَه وانتزع بيده القذرة النقاب عن وجهها.

وكان ما كان، فكأنّ السماء انشقت، وكأن الأرض زلزلت، وكأن الجبال سُيِّرت، وكأن البحار فجرت، صرخَت والدته صرخة لم تشهد السماء مثلها من قبل قطُّ حتى ذلك اليوم قائلة: "أغيثوني، وا إسلاماه! وامحمداه! ألا هل من مسلمٍ ينقذني؟!"

فأصاب كاملًا الذهول أمام هذا الحادث المفاجئ ورمى الحِمل مِن على ظهره؛ فالأحداث التي تطوّرت فجأة، والأيدي القذرة التي امتدت إلى والدته، وصرختها التي غدت سكينًا يطعنه في قلبه، كلّ هذا أخرجه عن وعيه، فأعمى الغضب عينيه، واندفع إلى الأمام دون خوف، وأخذ يصرخ قائلًا: اترك والدتي، اتركها يا عديم الشرف، وقذف الفرنسيَّ -الذي اعتدى على والدته وحاول نزع نقابها- بحجر التقطه من الأرض، فأصابه الحجر في رأسه كِفاحًا، ثم هاجم الجنديين اللذين أحاطا بوالدته، وأخذ يضربهما بقبضة يده الصغيرة ضربات شتّى، وفي الوقت نفسه كان يحاول أن يعضهما في ذراعيهما.

ضرب واحدٌ منهما كاملًا بمرفقه في رأسه، فترنّح كامل وسقط على الأرض، ولكنه سرعان ما هبّ من مكانه، وهاجمهما مرّة أخرى، إلا أنه خارَت قواه مرّة أخرى بضربة من مؤخِّرة البندقية التي انهال بها الجنديّ الوغد على رأسه، لم يتحمل جسده الضعيف ضربات البندقية أكثر من ذلك، فتساقط على الأرض، وأضحى وجهه لا يكاد يُعرف من أثر الدماء التي تسيل من رأسه.

وأقبل الجندي ينزف من حجرٍ رماه به كامل، فطعن كاملًا في صدره بجفير البندقية بحقد، ولم ينته حقده عند هذا الحدّ، فطعنه مرة أخرى وأخرى، فارتمت الأمّ على صغيرها وفلذة كبدها الغارق في دمائه واحتضنته، وصرخت قائلة: "صغيري، حبيبي كامل!" ودوّت صيحاتها فبلغت عنان السماء التي هجرتها طيور السلام.

أقبل الأهالي الذين سمعوا الصيحات إلى مكان الحادث، فاحترقت قلوبهم حزنًا وقد رأوا كاملًا في هذه الحال، فوقع الرعب في قلوب

الفرنسيين عندما رأوا تجمُّع الأهالي، وفرُّوا هاربين إلى المخبز كما جاؤوا، وأغلقوا الباب بالمزلاج من الخلف، ووضعوا خلفه أيضًا جذعَ شجرة ضخمًا ليكون حصينًا لهم أكثر.

كان كامل ملقًى على الأرض، ووالدته بجانبه تنوحه وتَنْعَاه بلا نهاية، وتدفقت على الأرض دماء تنزف من صدره -الذي غدا مصفاة- ومن رأسه المنفلِق.

استحال الشعب الذي لم يرض بالاحتلال شلالًا هادرًا بالغضب، وسرَت على ألستنهم عبارات الثورة والانتفاضة ضدّ الاحتلال، فزلزلت الأرض كلماتهم التي فاضت من قلوبهم ولم يستطيعوا حبسها.

وأقبل السامعون إلى مكان الحادث مسرِعين، هذا في يده ساطور، وذاك معه فأس، وآخر بيده فِهر.

وأمطر وابل من الحجارة المخبز الذي انخنس إليه الفرنسيون مذعورين، فقام الجنود بإطلاق النار في الهواء من البندقية الآليّة التي وضعوها في الطابق العلويّ لترويع الأهالي، ولكن إيقافهم كان أمرًا مستحيلًا.

وبلغ الخبرُ أيضًا قائدَ قوات الدَّرَك جَبُور كَمَال، فسارع إلى مكان الحادث ومعه المفوّض حقي بك، وعندما رآهم الأهالي ثارت ثائرتهم، وارتفعت من كل مكان أصوات تلعن العدوان، فلم يحدث قطُّ من قبل أن تطاولت يد على العِرْض في هذه المدينة، فتعالت الأصوات: "ماذا ننتظر أكثر من ذلك؟! الدين يضيع! والعِرض يُنتَهك، وصبية صغار يُذبّحون! لا نرى قوّة هؤلاء الجنود إلا في العدوان على النساء والأطفال فحسب!"

حاول المفوض حقي بك أن يهدّئ من رَوْع الأهالي، لِيَهْدَأ الجميع؛ "لا بدّ أن نفكر تفكيرًا سليمًا، فهذا وطننا ونحن أصحاب هذه الأرض، وعاجلًا أم آجلًا سيعرف العالم أجمع هذا الأمر، لا ريب في ذلك، ولكن لا داعي للعنف؛ إذا اقتحمتم المخبز الآن وكسرتم الباب فسوف تُرضون أنفسكم لأنكم أخذتم بالثأر، ولكن لا، فلا بدّ لنا أن نصبر، لا تتعجلوا فعندما يحين الوقت لن نكتفي بواحدٍ أو اثنين بل سنجليهم جميعًا عن أرضنا، اعلموا أنهم لن يهنؤوا بهذه المدينة أبدًا، ولكن اصبروا قليلًا."

كانوا جميعًا يبجّلون حقي بك، ويُكنّون له الاحترام؛ فاستمعوا له بأنفة وعزّة، واستطاع حقي بك أن يهدّئ من رَوع مجموعة من الأهالي، ولكن كان فيهم من لم يرتض قوله، ومن تمتم قليلًا، إلا أنّ الغالبية العظمى أيّدت كلمات حقي بك، فسكن المكان.

وصل جدّ كامل إلى مكان الحادث، وكان الناس في الزحام يتنحون عن الطريق بهدوء ليمرّ، كانوا يقولون له وهو يمرّ من بينهم: "عظّم الله أجركم"، فما استطاع أن يردّ عليهم إلا بصوت متهدّج قائلًا: "يحيا الوطن"؛ ولم يَعُد يقدر أن يقف على قدميه، كانت عيناه -وقد اغرورقتا بالدموع- تبحثان عن حفيده، وكان قفصه الصدري يعلو ويهبط خفَّاقًا، وكانت يداه ترتعدان وشفتاه ترتجفان، ولما وصل إلى حفيده جثا على الأرض، وقال: "حَمَلي الوديع، أَرَضيت بالفراق على عجَلٍ هكذا يا صغيري اليافع، تركتني وحيدًا!" وانهمرت العبرات من عينيه الدامعتين وسالت على لحيته الرماديّة، ثم مال عليه وقبّله من جبينه.

وبعد ذلك نُقلت جُثّة كامل -وكأنّها وردة حمراء من وقع الطّعان- بالتكبيرات إلى منزله في شارع المُوصُلُّو، ولم يقوموا بمراسم الدفن والجنازة فالليل قد أرخى سدوله، وانتظروا انبلاج الصبح.

وفي صباح اليوم التالي أغلقت حوانيت السوق والدكاكين، وخرجت المدينة عن بَكرة أبيها من نساء ورجال وشيوخ وشباب لتشييع البطل الصغير وزفافه إلى بيته الجديد.

لقد ظهر المحشر الذي ظلَّ يثور في القلوب منذ أيام للعيان، فلم يعد مجال للعودة من طريق خَطَوا فيه للأمام.

أصبح كامل قرَّة عين جدِّه، وفلذة كبد جدَّته، أولَ شهيد يُدفن في أرض عينتاب.

فكان كامل اسم أول شهيدٍ، واسم أول شرارة اتقد بها الفؤاد.

حجر النَّبْلة

شعرت بحركة غريبة على غير العادة في بلدتنا، في بداية الأمر لم أستطع فهم ما يحدث، وجدت كل مَن في البلدة من شباب وشيوخ ونساء وأطفال يُهْرَعون إلى الميدان، بعضهم يحمل فوق ظهره غِرارة قمح، وبعضهم يسوق أمامه ثورين، وبعض آخر يتأبّط صُرة مُطرَّزة!

حينها كنت قادمًا لتوّي من الحقل وفي يدي نبلتي التي لا تفارقني أبدًا، فجلست على حجرٍ أمام باب حديقتنا، وبشغف طفولي أخذت أتابع ما يحدث، وبينما الأمر كذلك، جاء جدي مصطفى جاووش وهو مرتبك ينهَج، وعندما رآني علَت وجهَه المضيءَ ذا اللحية البيضاء ابتسامةٌ، فقال لي وعيناه تبرقان: "استعد أيها الفتى، ستتحمل المسؤولية".

اعتاد جدي أن يناديني بـ: "فتاي" أولًا ثم يشرع في قول ما يريد، أما أنا فكنت أغتبط بحديثه معي على هذا النحو، وحينها كانت تغمرني كل مشاعر البطولة، وكانت البطولة منذ القدم هي ما تدور حوله المحادثات الأكثر حميمية وأهمية خلال حفلات السمر والأفراح في كل منزل أو ركن؛ فقد كان عدد كبير من فتيان بلدتنا في الجبهة، فضلًا عن حال جدي الذي كان يتنقَّل قديمًا بين جبهة وأخرى لمدة عشر سنوات إلى أن تم إعفاؤه، ووالدي الآن في الجبهة أيضًا.

لم ينتظرني جدي حتى أقول: "خيرًا يا جدي، أي عمل تقصد؟"، ولكن تقدم يسرع خطاه إلى حجرة الضيوف، وتحدث مع والدتي بنفس الارتباك.

حركة الاضطراب المفاجئة التي بدأت في البلدة، بالإضافة لحالة الارتباك التي لم أعتدها من جدي، كل ذلك جعلني أشعر أنا أيضًا بالقلق؛ فذهبت إلى الفناء وجلست بجانب جدي فورًا.

جلست والدتي على أريكة وجلس جدي على الأخرى، وما لبثت والدتي أن بكت، إلا أنها استجمعت قواها حين رأتني، وطوت المنديل المطرز الذي كان في يدها.

لم أتحمل الأمر، فسألت جدي قائلًا: "جدي العزيز، ما سبب ارتباكك هذا؟!" فأجابني محاولًا أن يتمالك نفسه، بعد أن كست وجنتيه الممتلئتين حمرةٌ خفيفة، وتورمت عيناه الصغيرتان اللتان تكسوهما رموشه المتناثرة، فقال: "يا بنيَّ، تُجمَع التبرعات لـ"جناق قلعَة" والناس يبذلون النفس والنفيس، ويُستدعى الشباب المسلح للتجنيد"؛ ثم توقف برهة وشخص ببصره بعيدًا، وما لبث أن استطرد قائلًا: "بنيَّ، ليس لدينا ما نتبرع به؛ لذلك فلتكن عائلتنا فداءً، ولطالما كنتَ تسألني قائلًا: جدي ماذا يعيبنا نحن الأطفالَ، لمَ لا يستدعوننا للتجنيد؟! وها هو يومك قد حان، وحان الوقت لكي تُظهِرَ شجاعتك".

وحينها عجز لساني عن الكلام من شدة فرحتي ودهشتي، كان ذلك تفسيرًا مبكرًا لحلمي الذى لطالما حلمت به، لقد كان جدي صادقًا في قوله؛ فقد كان أسمى أحلامي أن أكون جنديًّا قويًّا كالفهد، والآن سنحت لي الفرصة، فلا بد من اقتناصها.

غمرتني سعادة شعرت معها بما يُدْرِك الأمواج حين ترتطم بصخور الشاطئ، فقد دقت بابي الفرصة التي لطالما انتظرتها بفارغ الصبر زمنًا طويلًا، فقلت: "ولمَ لا؟! حقًّا، لمَ لا يكون ذلك؟! إن لم

يعطوني سلاحًا لصغر سني، فإن نبلتي تكفيني".

فتبسم من قولي، وكان يعلم كم أحب نبلتي!

* * *

وانطلقنا حالًا إلى ميدان البلدة، ورافقَنا كلٌّ من والدتي وأختي الكبيرة وإخوتي، بدا الميدان كساحة الاحتفالات؛ كان الفتيان المتلهفون للذهاب إلى الجبهة بسرعة يقفون متحمسين، مفعمين بالحيوية، كالمُهَر التي تنتظر أن تشب، أمَّا السيدات والفتيات فقد انعكس على وجوههن ما في قلوبهن من قلق واضطراب، وبدا ذلك واضحًا على أكثرهن.

تشكَّل تلٌّ صغيرٌ من تبرعات الأهالي في ميدان البلدة، وبجانب هذه التبرعات كان يقف قائد يتحدث معه الناس جميعًا بوقار، قال جدي: "فلنتلمس هدوء المكان قليلًا، ولنذهب نحن كذلك ونُعْرِب عن مقصدنا"، فتحيَّنَّا الفرصة، وتوجَّهْنا إلى القائد، فأنشأ جدي يحَدِّث القائد الذي يصغُره بسنوات، وقد ألَمَّ به شعور يُذَكِّره بسنوات الخدمة العسكرية، فقال: "يا ولدي"، ينادونني مصطفى جاووش السيماوي، وقد نذرت أجمل أيام عمري لخدمة وطني؛ فكنت أتنقل من جبهة لأخرى، ولطالما شاركت في حروبٍ شرسة، وكنت شهيدًا على الموت وهو يُمزِّق القلوب، كل ذلك في سبيل وطني الحبيب، وقد علمنا بخبر جمعكم التبرعات من أجل جناق قلعةْ، ولا نملك الآن ما نساعدكم به، ولكن نود أن نمنحكم أعز ما نملك، لدي حفيد في الرابعة عشرة من عمره، ها هو ذاك الولد الذي تراه، فتًى كجمرة من نار، اسمه محمد، والده أيضًا في جناق قلعةْ، وما دمتم قد جئتم إلينا

لجمع التبرعات، فلن تتوانى أسرتنا عن تقديم يد المساعدة؛ وليكن حفيدنا فداءً للوطن".

وقعت كلمات جدي على مسامع الحاضرين كالقنبلة، وأخذت مأخذها من نفس القائد الذي لم يكن يتوقع سماع مثل هذه الكلمات، فسألني بصوت أجش يخفي به تأثره: "أخبرني يا محمد، ما هي مهارتك؟ فأنت ما زلت صغيرًا، وتعلم أننا لا نقبل صغار السن للتجنيد؛ فالجبهة موحشة، وإنَّا لا نستطيع أن ندفع بالصغار أمثالكم إلى الموت قصدًا، ولا طاقة لي بتحمل هذه المسؤوليّة".

فمثلت أمامه ناصبًا قامتي، وقلت: "سيدي القائد، أنا لا أخشى الموت، بل ستجدني قادرًا على صنع ما تشاؤون أيًّا كان، كما تعلمت من والدي الذي يجاهد أيضًا في الجبهة، حقيقةً لَكَمْ تمنيت أن تواتيني مثل هذه الفرصة فأذهب إلى الجبهة، والآن بعد أن دقت بابي تلك الفرصة، فلن أسمح أبدًا بإضاعتها".

ثم أخرجت نبلتي التي كنت قد أودعتها في نطاقي، وقلت: "هذه النبلة صديقتي وتوءم روحي، ومعها أكون واثقًا في نفسي أينما كنت في الجبال أو في المنحدرات، أسدد ضربتي فأصيب، ويعلم ربي أنه ما نجا من يدي صيدٌ قَطْ"؛ فتبسم القائد ضاحكًا من قولي عندما رآني أتحدث بهذا الحماس، وقال: "هيَّا فَلْتُرِنا مهارتك"؛ فالتفَتُّ فوجدت بعض المتطلعين إلى معرفة الأمر قد أحاطوا بنا أثناء الحديث، يبدو أن كلماتي قد جذبت انتباههم.

أمر القائد بإفساح الميدان، ثم أمرهم بغرس عمود على بعد خمسة عشر أو عشرين قدمًا، وقال: "هلمَّ إلينا، فلنر مدى مهارتك"؛ ثبَّتُّ في

النبلة بعنايةٍ تامّةٍ أحدَ الأحجار المستديرة التي لا يخلو منها جيبي، وحبست أنفاسي، وصوبت نحو الهدف، فسددت الضربة تسديدة صائبة، وعجَّ الوسط بالتصفيق.

نلت إعجابًا كبيرًا من الحاضرين، ولكن بدا على القائد وكأنّ أمرًا ما قد رابه، فقال: "أكان هذا تصادفًا، أم أنك حقًّا هدّاف بارع؟! أود رؤية ذلك ثانيًا"؛ ولكنه هذه المرة غرس الهدف على مسافة أبعد من سابقتها بعشرة أقدام، ومن جديد أصبت الهدف، وحظيت مرة أخرى بتصفيق حار، وامتلأت نفسي غبطة وسرورًا، وحينها تلاقت نظراتي ونظرات جدي، فوجدته مبتسمًا، ثم قال القائد: "حسنًا يا محمد، لقد أثبت جدارتك، استعد فستأتي معنا أيضًا".

* * *

وفي المساء، بعد توديع الأهل والأصدقاء، انطلقنا مع أبناء البلدة الآخرين، بعد أن حملنا المؤن على العربات، فذهبنا بالقطار إلى إسطنبول، ومنها إلى جناق قلعهْ، كنت صغير السن، وحدث ما كنت أخشاه؛ فلم يكلفوني بالخدمة في الجبهة، ولكن أعطوني مهمة جندي الصحة في مستشفى الميدان الذي تم تأسيسه في صُوغَانْلِيدَرَهْ خلف الجبهة، فقلت: "لا بأس، فهذه أيضًا مهمة"؛ سعدت بعملي كثيرًا وإن بدا عليَّ الحزن في بادئ الأمر، لكن طالما قد جئت هَهُنا، فسأثبت جدارتي، وما دون ذلك فلا يعنيني، وقطعًا سيأتي يوم أحتل فيه مكاني من الصفوف الأمامية كغيري.

عندما كنت أخلو بنفسي كان يتسلل إليَّ الهمُّ واليأس، وفي الأوقات التي كنت أتخذ فيها من نفسي مؤنسًا في ذلك المكان

المنعزل فكرت في طُرق أجد بها والدي، ثم تخيلت قريتنا ووالدتي وأختي الكبرى وإخوتي وعمتي، فضلًا عن جدي، فتساءلت: تُرى ماذا يصنعون الآن؟! أنا على يقين بأنهم أيضًا يفكرون بي، وأنهم حين يتحلقون حول المائدة، لا تجتاز اللقمة حلاقيمهم، فبادرت إلى الإمساك بقلمي، وهذه الأحاسيس والمشاعر تغمرني، وأخذت أكتب، فبحت بمكنون صدري، وأخبرتهم عن حالي، وعن شُغْلي مهمة جندي الصحة، وأخبرتهم كم يحبني قائدي! كتبت لهم هذا كله، ثم ألمحت إليهم بأن نبلتي لم يحن دورها بعدُ، وشرعت في وصف المكان وروعته، فأخبرتهم كم هي مرتفعة تلك الجبال هنا كجبال قريتنا! وكم هي خضراء تلك الوديان كتلالنا التي نرعى فيها أغنامنا! وما أجمل سماءها التي تعانق البحر بزرقة صافية! ولا سيما غروب الشمس الذي يكاد يُخَيَّل إلى الناظر أن البحر فيه يحترق، فخُيِّلَ إليَّ أنهم أمامي يحادثونني.

كانت تشتد علينا وطأة الحرب يومًا بعد آخر، ويزداد عدد المصابين كل يوم، فضلًا عن أن وضعنا قد ازداد سوءًا مقارنة بما مضى؛ فكانت القنابل التي تضرب المتاريس تمزق أجسادنا، وبلغ بنا الأمر إلى نقص ما يلزم من أدوية لمداواة مُصابينا.

ذات يوم أرسل قائد المستشفى الميداني النقيب حسن رسالة إلى كل العاملين بالمستشفى دعاهم فيها إلى اجتماع طارئ، نُوقِشَتْ فيه مشكلة نقص الأدوية التي نتجت عن زيادة عدد المصابين، فقال: "إننا إن لم نتخذ الاحتياطات اللازمة عاجلًا، فسنواجه قريبًا وضعًا أسوأ".

قُدِّمَتْ بعض الاقتراحات، فكنا نتابع الحديث بقلق في الصفوف

الأخيرة، وبعد برهة شرع في الحديث قائد خيمتنا الملازم سامي بك القُونْيَويّ، كان جنديًّا غائر الوجنتين، حادّ الذقن، عريض الجبهة، شجاعًا مقدامًا، يقف دائمًا متقدمًا بكتفه اليمنى قليلًا، فقال: "يمكننا التسلل إلى مستشفيات وحدات العدو، فنأخذ منها ما يكفينا من الأدوية ويسد حاجتنا أمدًا بعيدًا".

كنا جميعًا نستمع لقائدنا متعجبين؛ هل يعقل أن نتسلل إلى مستشفى العدو؟! وبدأ يشرح لنا كيفية القيام بهذ العمل، فقال: "أُقِرُّ بأنه عمل صعب؛ ولهذا لا بد لمَنْ سيقوم به أن يكون جسورًا مقدامًا، يضحي بروحه دون تردد إذا لزم الأمر؛ ولذا سيكون الاختيار على أساس التطوع".

عندئذٍ ألَمَّ بي شعور لم أستطع تمالكه، وحدثت نفسي قائلًا: "ها قد جاءتك فرصة إظهار شجاعتك"؛ كنت لا أطيق صبرًا، وكان هناك نقاش آخر إلا أنني لم أبالِ؛ إذ كان الانفعال داخلي يزداد، وأخيرًا أخذوا قرارًا باختيار مجموعة من المتطوعين.

خرج منَّا عدد من المتطوعين، فتقدمت معهم خطوة إلى الأمام، وقلت: "أنا أيضًا سأتطوع"، إلا أنهم لم يحفلوا بقولي، آخذين في اعتبارهم قامتي وصغر سني؛ فذهبت إلى قائدي، وطلبت منه متضرعًا أن يأذن لي بالذهاب معهم، ولإصراري وافق أخيرًا ولم يخيّب رجائي، فقد كان يعرفني إلى حدٍّ ما، وقد وثق بي في تلك الفترة القصيرة التي قضيناها معًا.

أصبحنا فريقًا من أربعة أشخاص، وهم: أنا، وعثمان من الَابْسَكي، وَعِزَّتْ من صَفْرَانْ بُولُو، وكذلك قائدي -الذي اقترح الأمر- الملازم

سامي بك، كان هدفنا ذلك المستشفى الفرنسي الذي يقع جنوب طومباقْ تَبَهْ، وهو أقرب مستشفى لنا، اتفقنا على أخذ كل ما نجده من لوازم طبية، ولا سيما الضمادات ومحلول النُّشَادر ومسحوق التجفيف؛ فقد كنَّا في حاجة مُلِحَّة إليها.

تأهبنا للرحيل واصطحبت معي نبلتي أيضًا؛ فقد تكون ذات فائدة لعملنا في سكون الليل، ثم مضينا في طريقنا فعبرنا كَرويزدَرهْ ودُموزدَرهْ حتى وصلنا إلى المستشفى، إلا أنه توَجَّبَ علينا الانتظار حتى منتصف الليل؛ إذ كانت اللحظة المناسبة لهجومنا ساعة خلودهم للنوم، حين يبلغ التعب منهم مبلغه؛ ولم يكن هناك سوى مجموعة من الحراس، أما البقية فقد غلبهم النعاس.

كان يجب علينا أن نتم عملنا على أكمل وجه، ولا يُسمح لنا باستخدام السلاح إلا للضرورة، هكذا كانت الأوامر؛ كان هناك ثلاثة جنود عند مدخل خيمة المستشفى، وعلى بعد كل خمسة أو عشرة أمتار توجد حراسة، فقلت: "سيدي القائد، لقد علمتَ كم أُحْسِنُ استخدام النبلة، فلتتركوا لي أمر هذين الجنديين القريبين".

فنظر إليَّ سامي بك نظرة حائرة برهة، ثم قال: "وكيف يكون هذا! أتود إقناعي بقدرتك على القضاء على هذين الجنديين بنبلتك هذه!" قلت: "نعم سيدي القائد، وما الغريب في ذلك! لقد علمت براعتي في استخدام النبلة، فلا تقلق، لن أخذلك".

أطرق سامي بك برهة يفكر، ثم قَبِلَ اقتراحي؛ لكون ما سأقوم به من عمل سيتم في صمت ولن يكون له صدًى؛ كان أصحابنا على أهبة الاستعداد، قذفت الحجر بكل قوتي، فما نتج عنها سوى صوت

أزيز قصير سرى في ظلام الليل، سددت الضربة إلى الحارس الأول في رأسه فأصابته، فسقط مغشيًّا على الأرض، وفي الحال ضربت ضربة أخرى، فأصبت الحارس الذي يتقدمه قليلًا، فهجم لابسَكيلي عثمان وصفران بولولي عزت على الحارس الأول فقضوا عليه دون أن يعطوه فرصة للمقاومة، أما الحارس الآخر فقد أسندناه إلى عمود وربطناه بحزامه؛ لئلا ينكشف غياب الحراس عن المكان، وكان هذا اقتراح صاحبنا ذي الأنف الطويل، العبقري صفران بولولي عزت.

بعدها دخلنا سريعًا، وعندما أضأنا المصابيح عثرنا على مخزن العلاج بسهولة، فملأنا الغرائر الأربع التي أحضرناها معنا قدر ما استطعنا، وفي نفس الوقت كنا نسترق السمع، ونركز في الأصوات حتى أضعف صوت طقطقة، ليس جبنًا أو خوفًا، لكنْ خشيةَ ألَّا نستطيع توصيل الإمدادات إلى مُصَابينا، فما كان لنا أن نخطئ.

كان القائد سامي أكثرنا حذرًا وحرصًا، ولطالما حذَّرنا هامسًا: "أسرعوا، إذا كُشِف أمرنا واتَّضح غياب الحراس، فإننا سنقع في ورطة"؛ ملأنا غرائرنا في مدة وجيزة، ثم حملناها على ظهورنا وعدونا في ظلام الليل الحالك مبتعدين عن الخيمة.

كان نسيم البحر باردًا رطبًا، فلامس وجهي بخفة، وسَرت في بدني رعشة خفيفة، حينها امتلأت نفسي غبطةً وسرورًا، وحدثت نفسي قائلًا: "لا بد أن أراسل جدي مرة أخرى".

وبعد أن ابتعدنا عن خيمة المستشفى كثيرًا، سمعنا صيحات وصوت أسلحة تسري في ظلام الليل من بعيد، وحين وصلنا إلى قطاعنا، أسرعت إلى القائد وقلت له: "سيدى القائد! لي عندكم رجاء؛

أرجو أن تأذن لي بالتغيب بضعة أيام؛ فوالدي في جناق قلعةْ، وأرجو - إذا لم تمانع - الانتقال إلى قطاع والدي لأبحث عنه".

فنظر إليَّ بعينيه اللامعتين، وقال متعجبًا: "أحقًّا ما تقول؟!" ثم قال لي وفي صوته نبرة عتاب: "لِمَ لمْ تخبرني من قبل أن والدك هنا! لو كنا نعلم، لأشعنا الخبر ولكنا علمنا بمكانه"، فسكتُّ، وما أردت أن أجيب، ثم قلت له: "أنت على حقّ يا سيدي".

أثناء نقل المُؤَن

جئت من قرية طرسوس الجبلية الجميلة مع أعمامي إلى جبهة آدَانَهْ لكي ننضم إلى القوات الوطنية، اسمي محمد، ولكن الكبار هنا يدعونني محمد الطرسوسي نسبة إلى المنطقة التي جئت منها.

كثيرًا ما كنت أشعر بإحساس لا أستطيع تملكه، إحساس ناتج عن بعض الكراهية، وقد ضقت به ذرعًا، حتى كنت أحيانًا أضغط على أسناني حتى تكاد تتهشم من شدة الغيظ؛ لقد كان احتلال أراضينا هو مدار حديث القرية، فهو الشيء الوحيد الذي يتحدث عنه القرويون كل يوم في المنازل والبساتين والحدائق وميدان القرية، حتى في المقهى؛ إلا أن عقلي الطفولي لم يقوَ على استيعاب تلك الأحداث؛ ماذا يعني احتلال أرضنا؟! هل يعني هذا أن يأتي أحدهم وينتزع منَّا عنوة بلا حقّ حقولنا التي زرعها والدي ذو الخُفّ والسروال المرقع! ما كان والدي ليبيع أرضه أبدًا، وما كان ليتحمل انتزاعها منه استبدادًا وظلمًا، ولو كان الثمن حياته.

تُزرع الأرض لكسب القوت، ولكن بالنسبة لوالدي كانت الأرض شيئًا مختلفًا؛ فقد كانت روحه وفلذة كبده، حتى إنني كنت أغار من حديثه مع المحاصيل التي نضجت وطابت، وأشجار البرتقال التي أينعت ثمارها، حتى ظننت أنه لا يحبني بقدرها، وخُيِّلَ إلي أن هذه الأشجار تزداد جمالًا وهي تنصت لحديث والدي، وكأنها تعي ما يقول.

فإذا أوشك موسم الشتاء أن يرحل، لم يستطع أحد منَّا أن يستبقي والدي في المنزل؛ إذ اعتاد أن يستيقظ مبكِّرًا فيرتدي معطفه، ثم يخرج من المنزل ليتنزه بين بساتينه وحدائقه وحقوله، ثم يعود مساءً إلى المنزل بحذائه الملطخ بالطين وهو متعب تعبًا يلتذ به، ولطالما سمعناه يقول وعيناه تبرقان: "واهًا لهذه الجبال لو أنها جادَت بثلوجها شيئًا فشيئًا، فلسوف تجود الحقول بسيل من الثمر"؛ ثم نراه يفترّ عن مثل حبّ الغمام.

أتذكر عندما كان يعود إلى المنزل متعبًا مرهقًا في صغري، كانت والدتي تُعِدُّ له الشاي الجبلي الذي يروق له وينعشه كثيرًا، فيتوضأ وينتظر الأذان قبل دخول الوقت، وقد كان والدي في انتظار دائم؛ فكان ينتظر الربيع، والغيث، وإنبات البذور التي غرسها في الأرض، وينتظر ازدهار الأشجار، وتسنبل المحاصيل، وأوقات الحصاد النشطة في فصل الخريف، ولكن أكثر ما كان يستهويه هو انتظار الأذان؛ فحينها كان يتغير وكأنه في موسم آخر، وكأن الزمن قد توقف من أجله.

ولكم أن تعلموا أن والدي وغيره من القرويين الآخرين أصحاب الحقول ما كانوا ليتنازلوا عن شبر واحد من أراضيهم ما حيوا؛ إذ كانوا يؤمنون أن مَن ليس له أرض ليس له وجود.

وها قد جاء اليوم الذي فيه من قرس البرد وشدته ما يتجمد له الدم، وازداد قلق القرويين واضطرابهم منذ احتلال الفرنسيين لمدينة آدَانَهْ، وأصبح والدي عاجزًا عن المرور على حقوله كما كان يفعل من قبل، وأصاب الذعر الأهل والأقارب جميعًا؛ فأُعدت الخيول،

وجُهِّزَتْ الأسلحة والبنادق الآلية المعلقة على الجدران، وشُحِذَتْ الخناجر.

كان والدي أكبرهم سنًّا؛ فتركوا له حراسة القرية، فتضرعت لوالدي وتوسلت إليه كثيرًا حتى أقنعته بالسماح لي بالذهاب إلى الجبهة مع الشباب الآخرين، أما والدتي فقد كانت مترددة قليلًا، وكانت تحتج بقولها: "ماذا يستطيع صغيري أن يفعل هناك؟!"؛ وأصبح إقناع والدتي من مهمة والدي، فقال: "أنا لم أستطع الذهاب فدعيه يذهب، لعله يحمل الزاد والشراب للسرايا فيكون ذا منفعة، إن سقاهم شَرْبَة ماء، فهذا يكفي"؛ فلم تستطع والدتي معارضته، فما كانت لتردَّ عليه قوله، وهذا ما اعْتَدْتُه منها منذ صغري.

أتممت استعداداتي وأخذت مكاني من المجموعة مع القرويين، وقمنا بتفتيش المنطقة التي بين طَرْسُوسْ وآدَانَهْ؛ في بادئ الأمر تجولت في المنطقة بضعة أيام، ولا يمكنني القول بأني قمت بعمل كثير؛ فما كنت أقوم بعمل شيء سوى توزيع أوعية الطعام على السرايا عندما يحين وقت الطعام، وبالرغم من ذلك كانوا يمدحونني، ثم قُسِّمَتْ السرايا بعد أسبوع إلى مجموعات يتراوح عددها بين عشرة وعشرين شخصًا، وتم توزيعهم على الطرقات؛ فهناك مَن يقف عند الممرات الضيقة، وهناك مَن يقف عند بدايات الجسور، ومنهم مَن كان يعتلي التلال المرتفعة التي تطل على جميع الجهات وتكشف كل شيء.

ولما أصبحت الحال هكذا كُلِّفْتُ أنا أيضًا بعملٍ ما، وقد أحببت كثيرًا عملي الجديد؛ إذ كان عملًا مفعَمًا بالحركة والحيوية، وقد كنت

أهوى المغامرات والإثارة واللعب؛ كنت أنا واثنان من أصدقائي نمثل حلقة الوصل بين السرايا؛ إذ كانت مهمتنا تسليم الرسائل التي في حوزتنا دون أن تقع في أيدي الأعداء، فكنا نعرِّض أرواحنا للخطر، وحينها كنا نشعر بأن العمر قد تقدم بنا خمس أو عشر سنوات؛ رافقني حسن وهو من قرية مجاورة لقريتنا، وكان معنا عليٌّ أيضًا، وهما ولدان جيدان، وقد نشأت بيننا صداقة جميلة وقوية وكأننا أصدقاء منذ الصغر.

تارة كنت أذهب وحدي، وتارة أخرى كنا نذهب معًا، ولمَّا كنا نذهب معًا كنا نبتكر ألعابًا لئلا نمَلّ، فكنا نلعب في الطريق لعبة "من أكثرنا شجاعة؟"، وكنا نحدِّث بعضنا عن البطولات الخارقة التي طالما تخيّلناها، وفي بعض الأوقات كنا نتسابق فجأة حتى الموت لنرى مَن منَّا الأسرع، وإن كنّا لنلفظ أنفاسنا ونلهث من كثرة الجري، وكنا أيضًا نصعد المرتفعات الصخرية الشاهقة بسرعة الفهد دون خوف؛ ما وددت قوله أنه على الرغم من خطورة هذه المهام إلا أن متعتها كانت تنسينا خطورتها.

وما لبثوا أن وجدوا لنا وظيفة أخرى مشابهة لهذه؛ إذ كُلِّفْنَا بنقل المؤن إلى سرايا "يُوقَارِي كَدِيكْ"، إلا أن هذا المكان كان وعرًا غير آمن، وقد قيل: إن الفرنسيين احتلوا وسط مدينة آدَانَهْ، ومما زاد الأمر سوءًا ما شاع ذكره بأنهم يشنون هجومًا على القرى المجاورة، فنبهنا رئيس سريتنا إلى ضرورة تحري الدقة قائلًا: "أيها الصبية، كونوا على حذر، ولا تتشاجروا، وانتبهوا جيدًا، وتهامسوا ولا تتحدثوا بصوتٍ عالٍ في الطريق"؛ فكان جوابنا جميعًا وفي اللحظة نفسها: "أمرك يا سيدي".

كانت مهمتنا حمل المؤن، فاتفقنا أن نقول إن رآنا أحد: "جئنا من عند خالنا في القرية المجاورة"؛ وإن سُئِلنا عمَّا نحمل اتفقنا أيضًا أن أرد قائلًا: "تلك المؤن التى أعطانيها خالي، وهؤلاء أصدقائي من القرية، وهم يرافقونني الطريق".

تقدَّمنا في طريقنا بين أشجار الصنوبر الطويلة، واستنشقنا روائحها التي تشبه رائحة المسك، أحيانًا كانت تدوّي في الغابة أصوات حادة تُصْدِرها الحِجْلى والطيور من الوادي؛ فأصابتنا تلك الضجة المفاجئة -التي أحدثتها أصوات الشحارير في الأدغال- بشيء من الخوف، فضلًا عن صوت طائر البوم الملون القادم من بعيد، فقد ذكَّرنا بالحكايات المشؤومة التي كان يحكيها لنا أجدادنا، فضحكنا من أنفسنا لخوفنا هذا، وكلما ابتعدنا عن الوديان وتوغلنا أكثر في الأدغال، كانت الأصوات التي تصدرها الحجلان والشحارير والطيور لا سيما طيور البوم تملأ ما بين أغصان الصنوبر.

اتبعنا التعليمات جيدًا؛ فلم نتحدث بصوت مرتفع، وكنا نسير نحن الثلاثةَ في صفٍّ واحد، ولكن ما إن وصلنا إلى منتصف الطريق حتى عبرنا ممرًّا ضيقًا مليئًا بأشجار الصنوبر التي تتداخل مع المنحدرات وأشجار البلوط والقطران وأشجار القمالِق، وبأسفله كان يجري جدولٌ له خرير، وفجأة وجدنا أنفسنا تحت وابل من الرصاص دون أن ندري ماذا حدث أو كيف؟! كان الرصاص يمر عن أيماننا وعن شمائلنا مستمرًّا بلا توقف كأنه مدفع رشّاش، وكلما انغرزت الرصاصات في الأرض، شكلت سحابًا من الغبار، وبينما أقول لأصدقائي: "خذوا حِذْركم"؛ إذا بي أشعر بحرارة شديدة في عظمة الحوض اليسرى، وكنت أحمل الحمل الأثقل، فلم أستطع

التحمل وخارت قواي، وألقيت نفسي بصعوبة تحت شجرة صنوبر، أما الآخرون فكانوا قد تقدموني، فقلت لهم: "انجوا بأنفسكم! لا تنتظروا واهربوا، وأنبئوا أصحابنا الخبر بسرعة"؛ ولم أتذكر شيئًا مما قلته بعدها وأنا على تلك الحال.

أُصِبْتُ، وكانت ساقي اليسرى تنزف، إلا أنني لم أشعر بألم كبير؛ ربما لأن الجرح كان لا يزال حديثًا، وتذكرت للتو أن الشهداء حين يُقْتَلون لا يشعرون بألم إلا ألمًا بسيطًا كأنه لسعة ذبابة، ثم غمرني إحساس فاتر بعض الشيء، فزحفت بقدمي تحت شجرة الصنوبر، وتقدمت نحو الأدغال الممتدة على ضفة النهر، وبعد فترة توقف إطلاق النيران، وقد كان واضحًا أن النيران أطلقت من بعيد؛ إذ لم تكن هناك أصوات رجال بالقرب منا.

شعرت بعطش شديد، جف حلقي من شدة الظمأ، وكانت ساقي اليسرى لا تزال تنزف، فقدت دمًا كثيرًا، ولم أستطع أن أحدد كم رصاصة أصابتني أو أين؟! فزحفت بين الأدغال مُصدِرًا صوت خشخشة حتى وصلت إلى ضفة النهر، فقربت وجهي إلى الثلج الذي استحال ماءً في الجدول، وتمضمضت فسالت الدماء من فمي، فكررتها ثلاثًا، ثم ارتشفت من الماء رشفاتٍ، وما لبثت أن شعرت بدوار، واسودت الرؤية في عيني، فاستلقيت على ظهري قليلًا، ثم قئت ما شربته من الماء ممزوجًا بالدم، وبعدها غبت عن الوعي.

* * *

عندما أفقت وجدت نفسي مستلقيًا في خيمة، وتطايرت إلى أنفي رائحة صبغة يُوْد، وشعرت بجفوني كأنها أحمال ثقيلة أعجز

عن رفعها، فجاهدت حتى فتحت عيوني، فوجدت أصدقائي حسنًا وعليًّا يقفون بجانبي، وعندما رأوني قد أفقت ارتسمت على وجوههم ابتسامة خفيفة؛ رأيتهم سعداء مسرورين فابتسمت أنا أيضًا.

حاولت جاهدًا استجماع ذاكرتي، حتى مرت الوقائعُ جميعها أمام عيني الواحدةُ تلو الأخرى؛ كنا نحمل المؤن، ومررنا عبر أشجار طويلة، وفجأة حُبسنا تحت وابل من الرصاص، نعم، نعم، آخر ما أتذكره أنني كنت أشرب من ضفة النهر، وما استطعت أن أتذكر البقية.

بعد ذلك علمت ما حدث؛ فهذان الصديقان الحميمان عندما رأوا أني أُصِبْتُ عادوا أدراجهم وأسرعوا إلى السرية وأخبروهم بما حدث؛ فجاءت مجموعة كبيرة وبدؤوا يبحثون عني حيث أُصِبْتُ، وكان ذلك بعد مناوشة شديدة بينهم وبين الفصيلة الفرنسية؛ انتهت بقضاء رجالنا على الفصيلة الفرنسية التي تربصت بنا، وقد عثروا عليَّ وأنا فاقد الوعي في المكان الذي شربت منه، وأحمد الله أن الرصاصة لم تصب العظم، وإلا لكنت الآن عاجزًا عن السير بلا عُكَّازة شهورًا عدّة.

دخل الخيمة رئيس سريتنا وقال: "كيف حال بطلنا الشهير؟!"؛ قلت: "الحمد لله، شكرًا يا سيدي أنا بخير، تحسنت حالتي بسرعة"؛ فقال: "ما شاء الله!"؛ وسكت برهة ثم قال وهو مطرقٌ بعينيه نحو حذائه ذي الجلد الأسود: "لنرسلك إلى قريتك يا محمد؛ فتغيير المناخ سيكون جيدًا لك، وستعتني بك والدتك بشكل أفضل، وعندما تشفى من مرضك وتستعيد قواك، سنأتي بك مجدّدًا".

تسللت إلى نفسي رعشة باردة، فارتبكت وحادثت نفسي قائلًا: "كيف أعود إلى قريتي قبل انتهاء الحرب؟! كيف لي أن أنظر في وجه أبي؟! كيف أترك الجبهة دون أن نطرد الأعداء ونقطع دابرهم؟!"؛ فاستويت على سريري، وارتعش صوتي حتى إني أنكرْتُ أنّه صوتي أنا، ونسيت ألمي وقلت: "لن أرجع، مستحيل، لا أستطيع العودة، لقد أخبرتكم أني أتعافى سريعًا، وسأنقل طعامكم وشرابكم مجددًا، أتوسل إليكم لا تُعيدوني".

تأثر الواقفون بجانب الرئيس واغرورقت عيونهم بالدموع، فتقدم عثمان جاووش الصحيّة خطوتين إلى الأمام قائلًا: "ليبقَ معنا يا سيدي ذلك الصغير الجريح، في الحقيقة جرحه ليس خطيرًا، فأرجو ألَّا نُعيده لئلَّا نجرح مشاعره، فضلًا عن أن جرحه يلتئم بسرعة"؛ وبعد كلمات عثمان هذه أُذِنَ لي بالبقاء في الجبهة.

مِلْح البارود

اشتدت وطأة الحرب علينا، ولم تكن هناك مساعدات خارجية، وحاصر الفرنسيون المدينة من كل حَدَبٍ وصوب، وكانت ذخائرنا ومؤننا تنفد يومًا تلو آخر، وإن لم نجد حلًّا في غضون شهر فستسقط المدينة، لا قَدَّرَ الله، وكانت المجاعة ونفاد الذخيرة هما العدوين اللذين يحاربانا بعد الفرنسيين، وقد استطعنا مقاومة الجوع بصعوبة؛ فاستغنينا بالأكلة عن الأكلتين، وعشنا عيشة الإقلال والتقطير، إلا أن ضائقة نفاد الذخيرة ظلت تطاردنا، ولن نقوى أبدًا على مواجهة الأعداء بدون ذخيرة.

كان من بيننا قائد عبقريٌّ يُدعى الملازم مصطفى اللُوهَانِي -حفظه الله-، لقد وجد لنا حلًّا تغلبنا به على هذه الضائقة أيضًا؛ فقد دعاه قائد المدينة أُزدمير بك، وكان يحيط علمًا بذكائه وفطنته، فطلب منه تأسيس مصنع للصناعات الحربية قائلًا: "ظروفنا -خاصَّةً الوضع الراهن وحالة الأهالي،- لا تسمح بضياع الوقت، ولا يمكننا الحصول على المساعدات التي نرجوها من الفيلق؛ فلا بد لنا من أن نصنع أسلحتنا وبارودنا وقذائفنا بأنفسنا سريعًا".

أعلن الملازم الخبر على الملأ، فنادى في الناس قائلًا: "نداء إلى كل ماهر صاحب حرفة، فَلْيترك سلاحه وَلْيأتِ إلينا مسرعًا"؛ فلبَّى النداء صناع البنادق، والحدادون، والنحَّاسون، والصاغة ممَّن لديهم خبرة التعامل مع الأشياء الحساسة، والنجارون، وصاهرو المعادن، جاؤوا فرادى وجماعات.

أنا أيضًا كان يمكنني تقديم يد المساعدة بشكل أو بآخر؛ فقد كانت لديَّ خبرات سابقة اكتسبتها في فترة التجنيد، فلم أنتظر، وما لبثت أن تقدمت معهم، ثم تم اختيار مكان جيد ليكون مقرًّا للمصنع، وهو خان يسمى صَابُونْجُو يقع في أَسْكِي صَرَايْ، وقد كان بناءً حصينًا لا يمكن ليد الأعداء أو لمدافعهم الوصول إليه، وكانت هناك مخازن أسفل الخان، فكان المكان ملائمًا تمامًا لهذا العمل.

فتحنا المصنع في أوساط شهر ديسمبر/كانون الأول بعد أن ذبحنا القرابين، ودعونا الله، وقد لا تصدقون، ولكن المصنع كان يعمل ثلاث مناوبات متتالية دون توقف؛ فقد كانت مسألة حياة أو موت، وكابدنا في سبيل هذا العمل مكابدة عظيمة، فكنا نصل الليل بالنهار، فقد نشبت الحرب، ولا حرب بدون ذخيرة.

كانت مدافع الأعداء التي يَبلغ قُطرها خمسة عشر سنتيمترًا تزلزل المدن موتًا ودمارًا، وقد كان الأهالي في حالة بؤس يُرثى لها؛ حتى إن بعضهم كان يموت جوعًا، ودفع الجوع بعضهم إلى ذبح البغال وأكلها، بل أكثر من ذلك، فقد بلغ بهم الأمر مبلغًا بعيدًا حتى إنهم كانوا يأكلون الشعير من بين روث الحيوانات بعد فرزه وتنظيفه، أما الأطفال الرضع فقد مات أكثرهم، ولم يبقَ في قلوب الأمهات إلا الألم المفجع، وسكنت النساء الكهوف، فتحولت المدينة إلى أطلال خربة.

يتكون المصنع من اثني عشر قسمًا، ويبلغ عدد العمال به نَحْوَ ألف ومائتي عامل، منهم مَنْ يعيد إصلاح الأسلحة الفاسدة، ومنهم مَنْ يصنع كبسولات تجعلنا نستخدم الخراطيش الفارغة مرة أخرى،

وهناك قسم يتم فيه إيداع أظرف الطلقات الفارغة التي يجمعها الأطفال من الجبهة، فيُعاد حشوها مجددًا، ثم تُرسل إلى الجبهة مرة أخرى، وقد كنت أعمل في قسم البارود مع كُور عُكَّاشَة؛ إذ كنت أتمتع بمهارة تركيب العطور، وعندما كلفني الملازم مصطفى اللوهاني بهذه الوظيفة، استقبلتها بصدر رحب قائلًا: "سمعًا وطاعة".

تحتاج صناعة البارود إلى موادّ عدةٍ، مثل: ملح البارود، والكبريت، وفحم الصفصاف، ولكي نحصل على ما يكفينا من الكبريت أشعنا خبرًا بين التجار بأن مَنْ كان لديه مقدار من الكبريت مهما كان هذا القدر فَلْيسرع بإحضاره، وسيتم دفع ثمنه إلى أصحابه عاجلًا أو آجلًا، وقد كان أهم تلك المواد ملح البارود، ويتم استخراجه من حوائط كهوف نالت منها السنون، وتقع في سَفح المدينة، ويوجد أيضًا في أبراج القلعة الرطبة المتندية، فلم يكن هناك بدٌّ من قشط الانتفاخات المتعفنة التي تغطي أسطح الجدران، وهي التي يطلق عليها ملح البارود، وتسمى في علم الكيمياء نترات البوتاسيوم؛ تعلمت هذا أثناء فترة التجنيد.

ولا أَكْذِبكم القول بأنه كما كان في هذه الحرب أبطال مشهورون ومعروفون، كان بها أيضًا أبطال مغمورون -ولَكُمْ أن تظنوا أني أقول هذا لمعاونتهم إياي وتيسيرهم أمري- ولكن الأمر ليس كذلك، فهناك أطفال قاموا في هذه الحرب بدور لا يقل قيمة عن دور الفارس المقدام، كان بعضهم يحمل الزاد والماء إلى كتائبنا التي لم تفارق الخنادق، وبعضهم يجمع أظرف الطلقات الفارغة الباقية التي سبق استخدامها، دون أن يبالوا بوابل الرصاص المتساقط عليهم من فوق

رؤوسهم، ثم يحضرونها إلى مصنع الصناعات الحربية، كانوا أطفالًا ولكنهم عملوا بجد دون توقف كالنحلة.

امتدت مخالب الجوع والقحط إلينا جميعًا، وكنا نعطي الأطفال الذين يُحْضرون أظرف الطَّلقات الفارغة وملح البارود حَفنة من الزبيب، وأحيانًا حفنة من الفستق، ومَن تمتلئ كفه كان يطير فرحًا وطربًا، وقد كان القمح وقتئذٍ صعب المنال كالقماش الهندي، فكنا نعطي الأطفال كِسرة من خبز القمح، وعندما ينتهي القمح كنا نعطيهم الخبز المصنوع من دقيق نواة ثمرة المشمش اللاذعة؛ إذ كنا نطحن نَوَيَات المشمش المُرة في الطواحين للحصول على ما يضاهي القمح، ثم نحوله إلى دقيق، ومنه نصنع الخبز.

يا إلهي، لَكَم كانت أيامًا عصيبة! لقد ساءت الحال حتى إن الأطفال منهم مَن وهنت قواهم؛ إذ لم يكن الخبز يقيم صلبهم، ومنهم مَنْ تسمموا من الخبز الذي يأكلونه فماتوا، وإنكم لتعجبون أكثر لو رأيتم كَمْ كانوا يحبون هذا الخبز! وكما ذكرت سابقًا عمَّ القحط البلاد، حتى إنهم كانوا يذبحون البغال ويأكلونها مضطرين، وإلا فسيُهلك الأمةَ القحطُ لا الحربُ، فهو كالطاعون.

كان يساعدني في عملي خمسة عشر طفلًا، تتراوح أعمارهم بين التاسعة والسادسة عشرة، وأحيانًا كانت ترافقهم بعض السيدات عندما يذهبون إلى الكهوف التي تقع على حدود المدينة، فكنا نكشط تلك الجدران المتعفنة بقوة، ونضع ما نجمعه من ملح البارود في الغرائر، ثم نعود بها؛ فلن يفيدنا السلاح المصنوع ما لم يكن هناك بارود، فبدونه لن يمكننا صنع شيءٍ، رصاصًا كان أم قذائف مدافع،

أو حتى قنابل يدوية، وكان هذا سبب قولي سابقًا: إن في الحرب أبطالًا مغمورين.

كان الملازم اللوهاني يأتي من حين لآخر ليطمئن على سير العمل، وقد كان رجلًا ضخم الجثة، صحيح البنية، ولطالما تجنبت النظر إلى عينيه القاتمتين؛ فقد كانت نظراته إليَّ كالسهام تكاد تنفذ من بدني، وعندما أراه يتملكني شعور يمتزج فيه الخوف بالتبجيل.

كان المصنع أشبه ما يكون بخلية النحل؛ يعمل دون توقف، وكان عدد مَن يُحْضرون الذخائر وينقلونها لا يعد ولا يحصى، وكنا أحيانًا لا نجد رجلًا واحدًا لينقل الذخائر المطلوبة، فعندئذٍ كان يقوم بهذا العمل مَنْ كان هناك من الصغار، فينقلون الذخائر وهم يحملونها على ظهورهم، وأرجلهم النحيفة ترتجف وتهتز من ثقل وزنها، فلا تراهم إلا وتحسبهم من الهالكين، إلا أنهم كانوا يتمتعون بإرادة وثبات عميقين، وكأن الله قد منح كلًّا منهم قوة الإمام عَلِي (كرم الله وجهه).

كان أحبائي الصغار -الذين كان مِن بينهم مَنْ هو يتيمُ الأب أو الأبوين- قد أحضروا لي غرارات ملح البارود، فغليته جيدًا في قارورات كبيرة، وعندما وصل إلى درجة الكثافة المناسبة تركته ليبرد -وقد كان سر المهنة يكمن في درجة الكثافة- ثم قمت بتنقيته، فأصبح بارودًا صافيًا دون شوائب، بعد ذلك خلطت الكبريت بفحم الصفصاف وقمت بإذابتهما جيدًا محاولًا الوصول بهما إلى درجة القِوام التي أبغيها.

تختلف جودة البارود من نوع لآخر، وقد قيل: إن البارود الإنجليزي هو الأفضل في ذلك الوقت، إلا أنهم تأكدوا أن البارود الذي صنعته

لم يكن أقل منه جودة، وكان عليكم أن تروا غرفتنا الصناعية أثناء تجربة أول بارود صنعته، فقد احتشد الأطفال حولي قائلين: "رجاءً يا عم جعفر، نحن أيضًا نريد أن نرى كيف يشتعل ملح البارود الذي أحضرناه"؛ فلم أستطع كسر خاطر أحبائي الصغار، خاصةً عليًّا الذي كان يقف بجانبي واجمًا حزينًا، وهو صبيٌّ يتيم الأبوين، استُشهدت والدته حين أصابَتْ منزلهم قذيفةُ مدفعيةٍ تزن خمسة عشر سنتيمترًا ونصفًا، فأبادت كلَّ شيءٍ وسوَّت بهم الأرض، أما والده فقد استُشهد أيضًا بعد ذلك في معركة بين الجيشين، فأحيانًا كان يبيت ليلته عند أحد أقربائه، وأحيانًا أخرى في المصنع، وقد كان يُضنيني الوميض البريء في بؤبؤه الأَلْيَل، وقد كان واحدًا ممَّن أحضروا أكبر كمية من ملح البارود، ورغم أنّه هزيل إلا أنه كان جَمَّ النشاط ما شاء الله!

في كل مرة ساعدني فيها كنت أقول له: "أحسنت" ثلاثًا، وأُقَبِّلُ رأسه، ثم أضع في جيوب سرواله المرقع ثلاث حفنات من الزبيب، ولَكُمْ أن تعلموا أني كنت أعطيه أكثر بقليل من الأطفال الآخرين، وعندئذٍ كان يضيء وجهه وكأن الشمس تشرق منه وهي في ثوبها الأوّل، فتطيب نفسي لرؤيته مسرورًا، وإذا رأيتموه ظننتم أن هذا الطفل ما فقدَ أمَّه، فيقول لي ببراءة لا تفارق وجهه أبدًا: "سأجلب لك ملح البارود مجددًا، يا عم جعفر"؛ وفي كل مرة أبتسم قائلًا: "بالطبع، اجلب لنا المزيد، فنحن نحتاج الكثير منه"؛ فيبتهج وتغمره السعادة، وكانت بهجته هذه تملأ قلبي بهجة وسرورًا، ثم ينصرف عني ويسير متباطئًا بنعله الممزق من مُقَدَّمه، حتى ينضم إلى أصدقائه، يعلم الله كم مرةٍ تكرر بيننا هذا المشهد الذي لطالما أبكاني وهز كَياني.

كان عليٌّ هذا الذي حدثتكم عنه في مقدمة الأطفال الذين

احتشدوا حولي، فنظر إليَّ بشيء من الخجل والحماس قائلًا بصوت خافت: "أرجوك، أنا أيضًا أريد أن أرى كيف يشتعل ملح البارود الذي أحضرناه"؛ فوضعت في يدي -التي ثفِنت من العمل- قليلًا من البارود، ثم أشعلته، وفجأة تصاعد دخان كثيف جدًّا، فهتف الأطفال وهللوا من السعادة، ولمع بريق في أعينهم، وغمرهم إحساس بريء مَلَكَ عليهم قلوبهم وأحاط بمشاعرهم، فأخذوا يصفقون وهم مندهشون ضاحكون، كانت براءتهم كبراءة عصافير صفراء صغيرة تنتظر كِسرات طعام تحضرها أمهاتها لتضعها في أفواهها، وكلّ شيء في حياتهم محصور في رغباتهم.

ومما أسعدني أيضًا أن البارود ما كان يترك أيَّ أثرٍ للبقع في يدي، وهذا دليلٌ كافٍ على أنه عالي الجودة، فقد كان بارودًا ذا جودة عالية، قليل الدخان، وقد كان هذا البارود أول بارود أعرضه على الملازم اللوهاني بعد أن قمت بتجربته، فربَّت على كتفي قائلًا: "أحسنت صنعًا يا سيد جعفر، بفضلك ستظل المدينة صامدةً تقاوم، فجزاك الله خيرا وبارك فيك".

احمرَّ وجهي حياءً وخجلًا، وأجبته بصوتٍ بلا نبرة، وبكلمات مبعثرة قائلًا: "جزاك الله خيرا أيضًا سيدي القائد، فقد حاولت أنا وأحبائي الصغار أن نؤديَ واجبنا"؛ وبعد أن توفر لدينا البارود ازددنا صمودًا ومقاومة أكثر من ذي قبلُ، وأفسدنا كل مخططات العدو؛ فقد كانوا واثقين بأنفسهم لعلمهم بعدم تلقينا أي مساعدات خارجية، ولكن الحمد والشكر لله؛ فقد استطعنا بصمودنا ومثابرتنا على المقاومة أن نرغم العدو على التقهقر، وتوصلنا إلى اتفاقية لكيلا نضيّع هذا الشعب الذي أهلكه الجوع وأنهكه.

بعد انتهاء الحرب ظلَّ عزيزي عليٌّ الصغير ذو العينين الطفوليتين الصغيرتين يتيمًا وحيدًا، ولكن حمدًا لله أن كان لهذا الصبيّ المسكين قريب يداوي جروحه ويخفف عنه آلامه، في الوقت الذي يواسي فيه الناس بعضهم بعضًا.

كان الله له معينًا في الدار الآخرة.

الفأس المفلول

انتهى عهد الراحة والاطمئنان، وحلَّ محله طوفان من المشاعر أغرق كل مكان، وخالَطَ جدران المنازل، وغصّتْ به كلُّ لقمة في الحلق، بل قضى على المعنى الجميل الذي كانت تحمله الضحكات والابتسامات البريئة التي لطالما ارتسمت على وجه أخيه الأصغر.

سكن قلبَ أمّه القلقُ والاضطرابُ مجددًا، وشعرت أمه بقلق جديد يجثم على صدرها، فقد احتل اليونانيون إينَكُولْ، وقد أحست بأول خفقة قلق واضطراب في حياتها حين قصد زوجها -القيّم على منزلها، دنياها وآخرتها، وتوأم روحها- الجبهة، وقد قال لها قبل السفر: "الوطن يحتاج إلينا، وهذا حقه علينا"؛ ثم انطلق إلى الجبهة، كانت تصلها رسائله سابقًا، إلا أنها لم تتلقَ منه رسالة أو تسمع عنه خبرًا منذ فترة بعيدة.

عندما استأذن حسن أمَّه للخروج ليلعب مع أصدقائه، أنذرته قائلة: "لا تبتعد عني كثيرًا يا صغيري، أنت تعلم كم هي خطرة تلك المنطقة، ولا ندري ما تخبئه لنا الأقدار"؛ فردَّ قائلًا: "سمعًا وطاعةً يا أمي، لن أبتعد عن مكاننا هذا، سألعب مع أصدقائي في الحديقة الخلفية"؛ ثم خرج من المنزل، وكثيرًا ما كان يخرج ليتابع الأحداث مع أطفال الحيِّ الآخرين بنظرات يختلط فيها الشغف بالخجل.

عادة ما كان جنود الاحتلال يتجولون في مجموعات، وفي أماكن كثيرة يقومون بأعمال شغب ويستفزون الأهالي ويزعجونهم

ويضايقونهم، فكانوا مثلًا يركلون بأرجلهم أبواب بعض المحلات.

عندما قصد والد حسن الجبهة أخذ يوصيه كثيرًا قائلًا: "أنصت لي يا بني، أنا سأذهب إلى الجبهة، وسأستودع الله والدتك وأختك ثم أستودعك إياهما، فمِن الآن فصاعدًا أنت رجل المنزل والقوَّام عليه؛ فكن راعيًا لهذا المنزل، ولا تجعلهما يشعران بغيابي، فَلْأَرَ ماذا ستفعل، وأرجو ألَّا تخذلني"؛ كان لهذه الكلمات وَقْع شديد في نفس حسن فمنذ أن سمعها وهو يشعر بأنه يكبر يومًا بعد آخر.

كثيرًا ما كان ينتبه لما يسمعه من أصدقائه من حكايات الحرب، فيعيد صياغتها في خياله، ثم يرويها بأسلوب جديد، فقد كان البطل الكامن بداخله يكبر شيئًا فشيئًا دون أن يشعر، كانت الحكايات الحربية هي الأكثر إثارةً، وكانت تُروى في المنازل مسبوكة بحزن وأمل شديدين، ولم يكن للخوف مكان بين هذه الحكايات، وعلى أطراف الحديث الذي كان يجري للترويح عن النفس والتخفيف من الآلام، كان الموت يُذكَر جنبًا إلى جنب مع تاج الشهادة الذي يُتَوَّج به رأس الشهيد؛ فتربى الأطفال ونشؤوا متأثرين بسحر الحكايات التي تبرز قيمة الأرض والأذان والشرف والبطولات، وكانت الأمهات يَرين آمالهن في مستقبل أبنائهن، ويتمنين أن تكبر هذه الآمال مع أبنائهن.

اعتاد الأطفال على الدخول مع أصدقائهم في منافسات البطولة، فيتجادلون حول مَن سيكون الأكثر شجاعةً إذا اعتدى جنود الاحتلال على الحيّ، ومَن سيدافع عن والدته وإخوته ويحميهم من الموت، وقد كانوا قديمًا يلعبون لعبة الطيَّارة والغُمَّيضَى والعود، أما الآن فلا يلعبون سوى الألعاب التي تجسد الحرب، ولكن لم يرد أحدٌ منهم

أن يقوم بدور جندي العدو قطُّ؛ لذا كانوا يسندون هذه الأدوار إلى الأطفال الصغار، ولكيلا يعترض أحدهم كانوا يهددونهم بعدم السماح لهم باللعب معهم إن لم يقوموا بذلك، وكان هؤلاء الصغار يُكرَهون على تمثيل هذا الدور عادةً، أما الفتيان الكبار فكانوا أكثر عقلًا وعزة نفس؛ فما سمحوا قطُّ بأن يحملوا هذا اللقب (جندي العدو) وإنْ كانوا في لعبة غير حقيقية، وكان بعض الأطفال الصغار عندما يأتي عليهم الدور في صفوف جنود الأعداء يستسلمون للضربات دون أدنى مقاومة، رغبةً منهم أن يموتوا كي ينتهي ذاك الدور.

أما حسن فدائمًا ما كان يأخذ دور الجندي التركي، ولطالما كان يثِب من هنا لهناك كالغزال؛ يفتح ذراعيه عندما يقفز من فوق الرُّبا فيبدو مهيبًا كالصقور، وكان نشيطًا يتسلل متخفيًا بجانب الجدران، ويختبئ بين فجوات الصخور، ويتسلق أسوار الحديقة المرتفعة، ويصعد أعالي الأشجار في لمح البصر متسلقًا أغصانها، ومن ثَمَّ يضرب العدو على حين غِرة، وما أراد يومًا لهذه اللعبة أن تنتهي؛ كان يستمتع بها كثيرًا، وكان كثيرًا ما يتذكر والده وكَمَّ البطولات التي قام بها على الجبهة، فمنذ أن أدرك حسنٌ الحياة وهو يرى والده عظيمًا شجاعًا محاربًا صنديدًا بكتفيه العريضتين، ويديه الضخمتين.

كانت والدته تحذره دائمًا قائلة: "لا بد أن تكون في المنزل قبل غروب الشمس"؛ وذلك بعد أن أضحت الأم وابنها يَعضد كلٌّ منهما الآخر، وما كان له أن يعصي لها أمرًا، وكثيرًا ما كان يحدِّث نفسه قائلًا: "قديمًا كنت أتدلل وأحاول أن أطيل اللعب، أما الآن فقد تغيرت الحال"؛ فأضحى ينتهي من لَعبه في أغلب الأحيان مبكرًا، ثم يعود ليروِّح عن أخته الصغيرة، بينما تعدُّ والدته الطعام في المطبخ،

وقد اعتادت أخته أن تعبث بهذا وذاك، طالبةً الاهتمام والرعاية، فما إن تسمع صوت خطواته وهو يصعد السلم حتى تبدأ في الصخب والدوران وسط المنزل، وقد أدرك هو ذلك فأدَّى دروه أخًا أكبر على أتمّ وجه.

كان الضوء الأصفر الخافت النافذ من شرفات المنازل في إينَكُولْ يودّع المساء مبكرًا، وكانت تضيء المنازلَ من بعده همساتُ الدعاء وبركاته، وكانت الأمهات تشعر بنسمات هواء الربيع على كفوف أطفالهن الدافئة، وكانت حبات السبحة ترتفع حرارتها وكأنها رصاصات بندقية فُرِّغَتْ لتوّها، وذلك أثناء تنقلها بين الأصابع النحيفة المجعدة للجدات اللائي يرتدين الخُمُر البيضاء.

لا يُؤمَن مكرُ الأعداء أبدًا، ولا يَعرِف أحدٌ ما تجلبه الحروب؛ لذا توجب عليهم الترشيد والاقتصاد في استخدام الكيروسين، وقد شهد عمُّ حسين بقَّالُ الحيّ حروبًا كثيرة، وأدرك فترات مجاعات وقحط؛ ولذا كثيرًا ما كان ينبه ويؤكد على كل قادم إليه بضرورة شراء الكيروسين وتخزينه، ولطالما شَخَصَ بعينيه البنيتين المقعَّرتين بعيدًا قائلًا: "اقتصدوا في معيشتكم؛ ستكون الأيام المقبلة عسيرة؛ فالمجاعة على الأبواب، وسيأتي يوم يُزَجُّ فيه بالشيوخ الضعاف الواهنين للجهاد زجًّا، وإنْ ظلَّ حالنا هكذا فستجعلنا هذه الحرب في حالة يرثى لها، وستقضي على كل رطب ويابس، فلا بد أن يصل جيشنا قريبًا، وسيصل إن شاء الله ..."

وقد كانت والدة حسن مقتصدة، وكانت تغضب ممَّن يسرفون ويبذرون، فمنذ التحاق زوجها بالجبهة وقد استحالت صنوف الطعام

إلى نوع واحد، فأحيانًا كانت تضع اللبن الرائب إدامًا، أو نبيذ البرقوق، أو غير ذلك، وأيًّا كان طعامهم فهو من نوعٍ واحد فقط.

راجت بين الناس جميعًا شائعة فحواها "أن جنود الأعداء قد اقتحموا منازل في بعض الأحياء واعتدوا على نسائها"؛ فدبَّ الخوف والقلق في قلوب النساء، إلا أن مثل هذه الأمور لم تستطع عقول الأطفال الذين لم يبلغوا بعدُ استيعابها.

اعتادت والدته أن تشرع في تجهيز المَضاجع بعد صلاة العشاء مباشرةً، فيخلد كلٌّ منهم إلى النوم، ولكن غالبًا لا يجد النوم إلى عينيه سبيلًا؛ إذ كان يفكر بوالده كثيرًا ويتخيل نفسه بجانبه، وأنه يأخذ سلاح والده ويرفع رأسه قليلًا من الخندق ويرد على الأعداء، وكان يروق له كثيرًا تأليف الحكايات الخياليَّة، ولو لم تكن السماء غائمة، لأزاح ذاك الستار القديم البالي ونظر إلى أحد تلك النجوم الجذابة، ولتمنى أن يشاركه والده النظر إلى النجم نفسه.

كان حسن في الرابعة عشرة من عمره، وكان شعره أصفر، ووجهه مضيئًا، وعيناه زرقاوين، ولطالما سمع والدته تقول وهي تداعبه: "يشبه ابني خاله الذي استشهد في اليمن"؛ ورغم أنّ ملامح الطفولة بدأت تختفي من وجهه تدريجيًّا، كان أحيانًا يضع رأسه على فخذ أمّه، وكلما نظرت إليه أمه كانت ترى في صغيرها صورة أخيها الأكبر الذي أحبته كثيرًا وتقول: "سيكون ولدي بطلًا مثل خاله إن شاء الله".

* * *

ذات يوم خرج حسن ليلعب مع أصدقائه، وقد كان الجوّ صحوًا والسماء زرقاء صافية دون غيوم، فلامست وجنتيه نسمةُ هواء لطيفة،

تموَّج على إثرها شعره الطويل، وكوَّن حفيف أغصان الأشجار مع بعضها لحنًا موسيقيًّا مميَّزًا، وفجأةً سمع صراخ والدته، فذُهل وتجمد الدم في عروقه، ولم يستوعب ما حدث، وساورته أفكار سيئة؛ فوالده في الجبهة وقد يكون ...! ولكن سرعان ما أخرج هذه الهواجس الشيطانية من ذهنه، وحاول أن يفكر كيف يتصرف؟

غلى الدم في عروقه من شدة القلق والخوف، فتسلَّق سور الحديقة مسرعًا، ولم تزل صرخات والدته مستمرة بل ازدادت عن ذي قبلُ، وكانت أخته تبكي بكاءً ضعيفًا واهنًا، وتغمغم من المنزل بكلمات غير مفهومة، وما إن اقترب من المنزل حتى رأى عند مدخله جنديًّا من جنود العدو، كان يعتدي على والدته وكانت هي تقاومه بما أوتيت من قوة، فما إن رأى هذا المشهد حتى استشاط غضبًا؛ فأخذ يصرخ قائلًا: "أمي، أنا قادم إليكِ يا أمي"؛ وتلفَّتَ يمنة ويسرة باحثًا عن شيء يلتقطه بيده، فلم يجد شيئًا، فخطر بباله مستودع الحطب في القبو، فهُرِع إليه مسرعًا، تعلقت عينه بفأس منغرس في جذع شجرة، فأخذه وهرول مسرعًا نحو المدخل، وأحس بالوقت يمر متباطئًا متثاقلًا، تمر فيه الثواني كأنها ساعات.

تسارعت خفقات قلبه، وأضحى صدره يصعد ويهبط كالمضخة، توجَّه مسرعًا نحو والدته فإذا بها ملقاة على الأرض، وشعرها مشعث مبعثر، وملابسها ممزقة، يسيل الدم من وجهها، فقبض على الفأس بإحكام وصرخ قائلًا: "ابتعد عن أمي أيها اللعين، ابتعد عنها ..."

عندما رأى الجنديُّ - قصير القامة، نحيف الوجه، معقوف الأنف، حليق الشارب - الفأسَ في يد حسن أصابه الذهول فترك والدته؛ فهو

يواجه وضعًا لم يتوقعه ألبتة، ووسط ارتباكه هذا وجد أن خلاصه الوحيد في الفرار، إلا أن حَسَنًا ما لبث أن رماه بالفأس بسرعة من خلفه، انحنى الجندي فلم تصبه، ثم هرول مسرعًا نحو الدَرَج منتهزًا هذه الفرصة، فالتوى كاحله وسقط متدحرجًا على الدرج، إلا أنه نهض مسرعًا وأخذ يعدو وهو يعرج بكاحله اليسرى.

تدثر حسن إزاء ما حدث برداءٍ من الهيبة تجاوز به الرابعة عشرة من عمره، فقد كان رجل المنزل، وكانت أمه أمانة لديه، ولا بد من الانتقام لها، يجب أن تقطع هذه الأرجل التي تجرأت على انتهاك حرمة المنزل، وتلك الأيدي التي لطخت شرف والدته، فيا لها من وقاحة! أيظنون أن هذا البلد بلا راعٍ!

ودون أن يلتفت إلى والدته، لحق بالجندي الذي فرَّ هاربًا، وقد اعتاد حسن على العدْوِ بسرعة منذ الصغر، وراح يطارد الجندي الهارب والفأس في قبضته، فأطلت جاراته من النوافذ والشرفات حين سمعن صرخاته وصيحاته، وأخذن يصرخن قائلات: "الحقوا به، اقبضوا على هاتِكِ الأعراضِ هذا"؛ وأخذ بعضهن يرمين الجندي الهارب بأصائص الزهور، والبعض الآخر يرمينه بالقدور، وما إن دنا حسن منه وأصبح بينهما مسافة متر أو أقل حتى ضربه مرة أخرى بذاك الفأس المفلول الذي يحمله بيده قائلًا بسخط وغيظ: "هاكَ يا هاتِكَ الأعراض"؛ فأصاب بضربته هذه رأس الجندي فشقه نصفين، فانهمرت الدماء تسيل منه، وقد خالط صوتَه النخير، ومشى يترنح، فما خطا خطوتين حتى سقط صريعًا على الأرض.

مَنْ سيفعلها؟

"جدي، هل لي أن أذهب معك لصلاة العصر؟"؛ نظر إليه جدُّه برأفة وحنان قائلًا: "ألَا تعلم أن المكان ليس آمنًا؟! وأخشى - لا قدَّر الله - أن تصيبك رصاصة طائشة وأنت لا تزال صبيًّا يافعًا، عسى أن تنتهي هذه الحرب، عندئذٍ سيمكننا أن نغدو إلى المسجد ونروح وقتما نشاء".

أحنى عُكَّاشَة رأسه المعمّم بالعمامة الصوفية، وانقبض وجهه، واغرورقت عيناه بالدموع، ثم قال لجده دون خشية أو مبالاة: "لطالما سمعتك تقول: "لم أكن أشعر بأن حفيدي الذي كان يلهو معي بالأمس قد أصبح رجلًا"؛ ماذا جَدَّ الآن؟ أَمَا زال موجودًا هذا الرجل أم اختفى؟! ألست أنا حفيدك هذا يا جدي؟! أنا لست طفلًا، لقد كبرت، كبرت يا جدي".

وقف جده مذهولًا من قوله هذا؛ كيف استطاع أن يتحدث بمثل هذه الكلمات؟! ومِن أين أتى بها؟! إلَّا أن تلك الكلمات قد راقت له، فابتسم لقوله ابتسامة لطيفة، وعندما أنهى أكَّش كلامه إذا به قد اختفت من وجهه ملامح ذاك الفتى الخجول، وحلَّت محلها ملامح رجلٍ شجاعٍ لا يخشى شيئًا، فرفع رأسه واعتدل ونصب قامته، ثم أطرقَ ينتظرُ جواب جدّه.

كان عليُّ جاووش يحب عُكَّاشَة أكثر من حبّه لبقيَّة أحفاده، لسببٍ ما لا يدركه؛ فمنذ أن وُلِد ذاك الفتى وهو يشعر تجاهه بعاطفة

عجز عن تفسيرها، وهو بالطبع يحب بقيَّة أحفاده، وكيف له ألَّا يحبهم وكلهم من نسله ودمه؟! فقد كان أجدادنا على حقّ حينما قالوا: "أحفادنا أكبادنا"، ولكن عُكَّاشَة كان مختلفًا عنهم، فما شارك قطُّ في الألعاب الصاخبة ذات المشادَّات والمشاجرات، وكان يتسم بالحكمة والهدوء، وينتقي أصدقاءه، ولم يكن لديه سوى صديقين يحبهما كثيرًا ويحبانه، وهم متماثلون في الميول والرغبات، وقد اعتاد اللعب معهما دون عراك أو مشادَّات.

أدرك الجد أنه لا يمكنه كسر خاطر حفيده فأسرع قائلًا: "لن أحرم صغيري الحبيب رغبته"؛ وأسرع يطيِّب خاطره ببعض الكلمات قائلًا: "يا بنيَّ، هذه المرة أصبح حفيدي رجلًا بالفعل، ويتحدث حديث الرجال؛ لذا فليكن ما طلبته، هيا فَلْتتوضأ لتلحق بي، ولكن علينا أن نتوخى الحذر جيّدًا".

أدَّى معنا صلاة العصر القليل من أبناء الحي؛ إذ انضم معظمهم إلى السرايا ليقاتلوا في المنطقة التي كُلِّفوا بحمايتها، وقد فُرِض علينا حظرُ التجول، فما كان لأحد أن يخرج إلا في الأوقات المحددة لذلك، ومَن يخرج في غيرها فقد جازف بنفسه وخاطر بحياته، وما جاز لنا سوى المسير بمحاذاة الحائط، وهذا ما دفع بعض الأهالي -ممَّن تتجاور منازلهم ويلتصق بعضها ببعض- لصنع ممرات صغيرة عن طريق ثقب الجدران، ومنها يعبرون من منزل لآخر، وهكذا يغدون ويروحون كيفما يشاؤون دون الخروج إلى الشارع، وكان هذا الوضع يؤمن اتصال السرايا ببعضها، ويُعَدُّ في الوقت نفسه تدابير أمنية تضمن سلامة الأهالي والمواطنين.

مرَّت بنا أشد أيام الشتاء القارس، وازدادت اعتداءات العدو وهجماته بمساعدة قوات الإمداد، حتى اعتدنا رؤية تصاعد الدخان من الاتجاهات الأربعة للمدن التي يتم قصفها.

خرجنا جميعًا بعد الصلاة ولم يبقَ منا سوى عدد يتراوح بين خمسة وعشرة أشخاص لم يعودوا أدراجهم، بل جلسوا أمام الميضأة بمسجد جاووشلي، وكان بينهم عليٌّ جاووش يخاطبهم قاصدًا الأخذ بمشورتهم، فأنصتوا له لمنزلته عندهم، وقد كان عُكَّاشَة يعلم آداب الحديث جيدًا، فعندما رأى أن وجوده بالقرب منهم ليس بالفعل الصائب، وأن استماعه لحديثهم ليس من الأدب في شيء، تنحى قليلًا، وتَلَهَّى عنهم فأخذ يتأمل فيما حوله، غير أنه كان يسترق السمع لحديثهم أيضًا؛ إذ أحس أن المسألة جادّة جدًّا وخطيرة.

قال قِللِي أحمد: "لن نسمح باستمرار الوضع هكذا، لا بد لنا أن نجد حلًّا لهذا الأمر، فما زال إطلاق النار مستمرًّا من هذا النزل الأرمني، بعد أن استوطنته مجموعة من الفرنسيين، حتى أصبح الخروج من بيوتنا محرمًا علينا، وما استطاع أحد أن يجرؤ على المرور من هناك، فضلًا عن كون النزل مبنيًّا من الحجر بإحكام كأنه قلعة".

أَيَّد علي جاووش كلام قِللِي أحمد قائلًا: "أنت محقٌّ، لا بد أن نتخلص من تلك البنادق الآلية التي في النُّزُل"؛ فردَّ دُرَان جاووش عليهما قائلًا: "تقولان كلامًا جيدًا، ولكن كيف لنا ذلك؟!"؛ فأجاب قِللِي صاحب الاقتراح: "أهذا سؤالٌ؟! لا بدَّ من وجود طريقة ما لإيقافها، أنعجز أن نكون مثل "سنم عائشة"؟! أتذكرون ما فعلَتْ؟!

فبعد أن فقدت زوجها إذا بها ترتدي ملابسه الملطخة بالدماء، وتحمل سلاحه على كتفيها، وتنضم إلى السرايا، وحين علمت بإطلاقهم النيران على المسلمين من منزل جارها الأرمني، أضرمت النار في منزلها لإيقافهم؛ فاحترق مع منزلها منزلُ جارها الذي كان يقطنه المحتلون، وسنفعل كفعلتها هذه؛ سوف نحرق النُّزُل، فما لدينا حلٌّ آخر؛ فَلْيجد أحدنا طريقًا إليه، ويضرم فيه النار".

استمر حديثهم قليلًا، ثم انتهوا إلى الاتفاق على إضرام النار في النزل، ولكنهم ما لبثوا أن تنبهوا لوجود مشكلة ما، وهي: مَن سيفعل هذا الأمر؟! فقال مصطفى: "أنا سأفعله"؛ فاندفع قِلِلي أحمد إلى الأمام قليلًا - وهو رجل عُرِفَ بشجاعته وإقدامه، وقد تجول كثيرًا في الجبال والسهول والمنحدرات للصيد - قائلًا: "حسنًا، أنا أكفأ من يمكنه القيام بهذا الأمر، فكلكم تعرفون مهارتي جيدًّا، فتسلق المرتفعات عملي، ولو لم أكن واثقًا بنفسي لما عرضت هذا الاقتراح".

ولكن ما لبثوا أن اختلطت أصواتهم جميعًا وعلت معًا، وقال كلٌّ منهم: "أنا مَن سيقوم بهذا الأمر"؛ فنظر إليهم دُرَان جاووش قائلًا: "لن تنجح خطتنا بهذه الطريقة"؛ ثم قال لهم: "إذا كانت هذه حالنا، فلنُجْرِ قرعة بيننا، ومَنْ يقع عليه الاختيار فهو مَنْ سينفذ الخطة".

كانوا تسعة أشخاص يقفون أمام ميضأة، فأخذ دُرَان جاووش تسعة أحجار من الأرض؛ ثمانية أحجار بيضاء وحجرًا أسود، ثم وضعها جميعًا في جيب عباءته قائلًا: "مَنْ يكن الحجر الأسود من نصيبه فسيتولى هذا الأمر"؛ فبدؤوا بخشوع ووقار يسحبون من الأحجار واحدًا تلو الآخر، ومَنْ لم يخرج له الحجر الأسود كان

يتذمر ويغضب، أخذ خمسة أشخاص منهم خمسة أحجار إلَّا أنَّ الحجر الأسود لم يظهر بعدُ.

فجأةً اكتظ الوسط بصرخات وصيحات، أعقبها سماع طلقات نيران، فالتفتوا بسرعة إلى الجهة التي يصدر منها الصوت، فإذا بهم يرون النُّزُل الذي كانوا لا يطيقون صبرًا لإحراقه قد أُضْرِمت فيه النار واشتعلت، وجاءت إثر ذلك أصوات انفجارات، وتصاعد الدخان من النُّزل في لمح البصر، واندلعت النيران من النوافذ التي تطلُّ على الجنوب وكأنها نيران تخرج من فم تنّين، وأمطرت المدافع التي أُسِّسَت في متاريس القبو وابلًا من الرصاص.

لم يقوَ أحدٌ على استيعاب ما حدث، فتفقد بعضهم بعضًا، فلم يجدوا غائبًا منهم، وحينها انتبه عليٌّ جاووش وتذكر حفيده الذي أتى معه، فأخذ يصرخ قائلًا: "عُكَّاشَة! أين حفيدي عُكَّاشَة؟! عُكَّاشَة! عُكَّاشَة!"؛ ارتبك عليٌّ جاووش جدًّا وتسلل القلق إلى قلبه، بالفعل لم يكن حفيده بجانبه! تُرى أين ذهب؟! هل ذهب إلى المنزل بينما هم مستغرقون في الحديث؟! فاستحال الوسط إلى جهنم.

ألقى بعض الجنود الفرنسيين وأعضاء اللجنة بأنفسهم من ممر النزل إلى الحديقة فرارًا من الموت؛ إذ كانت الحديقة أكثر أمانًا لكونها محاطة بأسوار عالية.

وفي وسط هذا الزحام دبَّ الخوف في قلب عليّ جاووش، وخشيَ أن يكون قد أصاب حفيده مكروه، فأخذ يتمتم قائلًا: "أمرته بألَّا يأتي معي؛ ولكني لم أستطع أن أجعل هذا الشقي يُطيعني، سبحان الله! ألم يكن حالنا أفضل لو كان أطاعني وبقي في المنزل بجانب والدته؟!"؛

ثم سار مسرعًا بمحاذاة المسجد متجهًا نحو المنزل، إلَّا أنه لم يجده هناك أيضًا، فحدَّث نفسه قائلًا: "لن أُشْعِر أحدًا بما حدث"؛ ولكنه عجز أيضًا عن فعل ذلك، فأصاب القلق والارتباك كلَّ مَن في المنزل، فانطلق علي جاووش مصطحبًا معه مصطفى وقِلِلِي أحمد، وبدؤوا يبحثون عن عُكَّاشَة دون أن يبالوا بالرصاصات التي أُمْطِروا بها من فوق رؤوسهم.

تفقدوا ما حول المسجد جيدًا، إلا أنهم لم يجدوه، فازداد قلقهم؛ إذ لم تكن المنطقة آمنة ألبتة، وما لبث أن بدأ الجوُّ المغيم يستحيل ظلمة حالكة، وبعد أنْ دبَّ اليأس في نفوسهم ذهبوا إلى قانلي دَرَهْ، وهنالك سمعوا صوتًا يصدر من الوادي، وقد كان صوتًا واهنًا ممزوجًا بالأنين: "هنا يا جدي، هأنذا".

تعرف الجد على صوت حفيده في الحال، فعثروا عليه ملقًى بجوار صخرة، وبوجهه بعض الحروق، وتسيل من رأسه الدماء، فلم يستطع عليٌّ جاووش أن يجد تفسيرًا لما حلَّ بحفيده، فسأله قائلًا: "بنيَّ، ماذا حلَّ بك؟! أستحلفك بالله أن تخبرني كيف حدث لك هذا؟!" فتح عُكَّاشَة عينيه بصعوبة قائلًا: "جدي!" ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة لطيفة، وقال: "جدي، أنا مَنْ أحرق هذا النزل"؛ فأحس براحة وكأنه أزاح عن صدره حملًا ثقيلًا.

استرد أنفاسه، ثم روى لهم ما حدث قائلًا: "بينما كنتم مستغرقين في حديثكم، فكرت أنه يمكنني القيام بهذا الأمر، فتسللت إلى داخل المسجد دون أن تلاحظوا وأخذت كمية من الكيروسين، ثم بحثت عن عصا طويلة، واستخدمت عباءتي خرقة، فأشعلت أهدابها دون

أن يراني أحد"؛ ضاقت أنفاسه، ولم يستطع التحدث أكثر، ثم أُغشي عليه، ففزع الجد ظانًّا أنَّ حفيده قد تُوفي، فمال مسرعًا نحو صدره يتحسس ضربات قلبه وهو يرتجف، وما لبث أن شعر براحة شديدة عندما أدرك أن قلبه لا يزال ينبض، فأدرك أن الغلام قد فقد وعيه.

* * *

لم تكن جروح عُكَّاشَة عميقة، فتحسنت حالته الصحية في فترة وجيزة، وبعد أن استعاد قواه انضم إلى إحدى السرايا في الحيّ ليقدِّم يد العون، ولكن ما كادت الحرب تنتهي حتى استشهد برصاصة اخترقت صدره إثر أحد الاشتباكات.

صدورهم رحبة

كان الصديقان الحميمان هما بهجة الجنود، فهما يشيعان البهجة فيمن حولهما حتى في أحلك لحظات القتال، فكانا يجيبان المضطر، ينتقلان بخفة منقطعة النظير بين الخنادق، هناك بين أصوات المدافع التي تصم الآذان ورائحة البارود التي تخنق الأنفاس، فيحضران الرصاصات لمن نفدت رصاصاته، ويسقيان العطشى، فإن سنحت الفرصة وضعا أيديهما الصغيرتين على الزناد وبدآ في إطلاق النار فورًا.

لم يخش هذان الرفيقان -وهما أقران- وطأة الحرب قط، فقد ذاقا قسوة المعاناة من قبل، وامتزجت دنياهم الغضة بالشقاء والأسى، ولم يعد يشغل فكرهما غير المدينة التي ولدا بها، ففي حقيقة الأمر لم يعد لديهما ما يفقدانه غيرها، فحتى روحهما كانت أمانة لديهما.

كان محمد أكبر من إسماعيل بعامين، وقد عرف الموت الطريق إلى قلبه منذ زمن بعيد، كان يعرف كيف يخفي آلامه بين طيات قلبه الصغير، وإن خالطت قسوة الألم قسوة الحرب، كان جَلَده في مواجهة الموت يُذكّر بالوقفة الصارمة لهؤلاء المخضرمين الذين خبروا الحياة وأحوالها، فلا يستطيع الناظر منع نفسه المشدوهة من العجب.

في سنٍ صغيرةٍ فقد أمه، فعاش في لوعةٍ وشوقٍ إلى حنان أمِّه، وأصبح فؤاده فارغًا، وكلما سمع كلمة "الأم" كان شعور فاتر يعانق جسده الصغير، بعدها كان الألم يجثو في ركن بعيد من قلبه، وظل

وجهه الذي احترق من الشمس يعكس لوعة حرمانه من أمّه.

ثم كان احتلال عينتاب، فتضاعفت الآلام، وفقد أباه الذي كان يمثل له جبل الأمان بوقفته المهيبة، فقد استشهد السيد سعيد بائع الكباب في جبل شق سروت أثناء إحدى المناوشات العنيفة، فحل الموت وفجيعة الحرب مرة أخرى ضيفين عليه في ربيع عمره.

وبتساؤل من إسماعيل تجافى محمد عن ذكرياته وعن الخيالات البعيدة المؤلمة التي كان ينجرف إليها كلما واتته الفرصة، قال إسماعيل وقد لاحظ شرود صديقه: "ماذا دهاك يا صديقي، ما بك تشرد مجدّدًا؟"أجاب محمد باقتضاب بطريقة تظهر عدم رغبته في الإفصاح عما بداخله حتى لأقرب الناس إليه: "ليس بي شيءٌ، ربما كنت متعبًا، لذا أغرقت في التفكير!"

كان محمد وإسماعيل يفهمان بعضهما جيدًا، السائل والمسؤول في ذلك سواء، لم يختلفا ولو على شربةِ ماءٍ، وما سأله إسماعيل إلا ليكسر حاجز الصمت، كان وجههما البريء يعكس عناء اليوم ومشقته، ولم تعد أجفانهما تقاوم النعاس، فأخذ النوم يغالبهما، واستغرقا في أحلامهما التي لم يرغبا في الإفصاح أو الحديث عنها.

قطع قائد الكتيبة هدوء الخيمة قائلًا بصوته الأجش: " استيقظا استيقظا، فالسيد أصلان أرسل في طلبكما" بدت أمارات الفرح على وجهيْهما المتعبيْن، فما أجمل أَن يستدعيهما السيد أصلان، فقد كان القيام بعملٍ مفيد جُلّ سعادتهما، وما إن ناداهما حتى دب نشاط وقت السَّحَر في أبدانهما، ولم يعد للتعب والإرهاق أثرٌ وهما يهبان من مرقدهما.

كان السيد أصلان يولي هذين الشابّين اهتمامًا كبيرًا، لا سيما محمد الذي كادت نياط قلبه تتقطع عند رؤيته، وكان يقول لرفقائه: "سيكون هذا الفتى جديرًا باسم أبيه بمشيئة الله"، فكان يأتمنه ويوكل إليه المهامّ الحساسة.

عندما جاء الفتيان كان السيد أصلان يعمل في ضوء المصباح المرتعش الشاحب وأمامه خريطة كبيرة، ولما رآهما توقَّف ونهض من مكانه بلطف لاستقبال رفقاء الدرب، ثم ربت على رأسيهما قائلًا: مرحبًا بكما"، "بانتظاركما مهمة يا أولاد، لكنها مهمة خاصّة جدًّا وحساسة جدًّا، عليكما نقل رسالة مهمة لصلاح الدين عادل باشا في قرية سام، الرجاء أن تأخذا حِذْركما فلا تقعنّ الرسالة التي سأسلمكم إياها في أيدي الأعداء، فإن وقعت في يد العدو فلن يكون ذلك خيرًا لنا أبدًا، وسينكشف سرنا، لا بد أن يظل كلّ شيء في طيّ الكتمان، حسنًا يا أولاد؟!"

فقال كلاهما في نفس واحد: سمعًا وطاعة يا سيدي، واستطرد محمد قائلًا: لسوف نحافظ على هذا الخطاب يا سيدي مهما كلّف الأمر، اطمئِن فلن يقع في يد العدو وإن كلّفنا هذا أرواحنا، وتبدّلت قسِمات وجهه من براءة كانت تتهادى عليها نسمات الربيع إلى ملامح رجولة مهيبة.

قال القائد: "أوصيكما بتوخي الحذر الشديد، فكما تعلمان، العدو يحيط بنا من كل جانب، فاحذرا أن يتطرق الشكّ إلى قلوبهم" ثم غضّ من صوته ومال على أذنيهما مستطردًا بطريقة توحي بخطورة كلامه: "فإن قُبض عليكما فقولا: إننا فقيران يتيما الأب والأم، نذهب

للقرى المجاورة للتسول، حسنًا يا أولاد؟" فأومآ برأسهما، وقالا بنبرة عسكرية: "أمرك يا سيدي".

كانت ليلة طويلة، وشرع الفتَيان يجيئان ويروحان وقد ندّ النوم عن أجفانهما، لماذا يحمل هذا الخطاب تلك الأهمية؟ هل ساءت أحوال المدينة كل ذاك السوء أم أنّ هناك خطة جديدة لاختراق خطوط العدو؟ هل سيرسَلان في طلب المدد من مؤنٍ وذخيرةٍ؟ وهل سيمكنهما تأدية مهمتهما على أكمل وجه؟

تذكر محمد أمَّه، ليتها كانت على قيد الحياة وشاهدت ما يؤديه من مهامّ، وشهدت أيضًا كم أن ابنها شجاعٌ صنديدٌ، أما عن والده فكان دائمًا ما يقول: لا بد أن تغدو مِقْدامًا صنديدًا، تساقطت العبرات من عينيه على الوسادة، واغتمّ، فسعل سعالًا خفيفًا وتنحنح، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وتدثّر بغطائه.

* * *

في صباح اليوم التالي، انطلق محمد وإسماعيل قبل بزوغ الفجر، وعلى الرغم من الظلام الحالك إلا أنهما ظلا حذريْن، فتارة يزحفان على الأرض، وتارة يمشيان الهوينا، وتارة أخرى يسيران منحنيين لفتراتٍ طويلة، وكانت تتناهى إلى أسماعهما من بعيد محادثات بين حرّاس العدو.

ارتفع صوت أذان بصوتٍ أجش ملأ أركان الليلة الحالكة من ناحية وحداتهما، كانت الجبال والهوامّ والسوامّ في سباتٍ عميق، ولم يكن يتناهى إلى الأسماع غير صوت ديك يؤذن من حينٍ لآخر في القرى المجاورة.

مرت ساعة منذ انطلقا في الطريق، إلا أنهما لم يتمكنا من قطع مسافة كبيرة لشدة حذرهما، فالجو منذر بالخطر، وعندما أطلت الشمس برأسها من قمم الجبال، توشحت التلال المتموجة المترامية بلونٍ نحاسي، كان الرفيقان يسيران في طريق منحدرٍ وعر، فمرا من بين الحقول التي في جانب التل، فقد كان من العسير تسلق الصخور، وكانا يحتميان بالظلال المترامية لأشجار الفستق التي اصطفت على جانبي الحقول، وعندما ملأ الضوء الأرجاء اتخذا طريقهما بين أشجار الكروم، عندئذ ظهرت مجموعة من الفرسان وهم يثيرون عاصفة من الغبار، كان القلق يسيطر على إسماعيل وهو يقول: "محمد، إنهم جنود العدو! ما العمل الآن؟" كان محمد أكثر هدوءًا من صديقه، فقال محاولًا أن يهدّئ من روع صديقه: "لا تخف، فواضح ما سنفعله، لسوف نفعل ما أمرنا به السيد أصلان، لكن علينا أن نؤمن ذلك الخطاب أولًا".

وسرعان ما أخرج محمد الخطاب من الجيب الداخلي لعباءته، وحفر تحت إحدى أشجار الكروم المجاورة، لم يكن الأمر صعبًا فقد كانت التربة رملية رطبة، ووضع الخطاب وغطّاه جيدًا بالرمال وأوراق الأشجار، ثم ابتعدا، وانصرفا لمشاهدة القادمين ببراءة وفضول وكأن شيئًا لم يكن.

بعد فترة وجيزة قدم الفرسان، وما لبثوا أن قبضوا عليهما وكانوا يغمغمون بكلمات لا يفهمها أحد، قال أحدهم بلهجة تركية ركيكة: "حذارِ أن تكونا عميلين! فتّشوهما"، فترجل جنديان شابان من على جيادهما، وقاما بتفتيش محمد وإسماعيل.

حاول الفتيان أن يخفيا توترهما، فكانا يتبادلان النظرات ليظلا متماسكين رابطي الجأش، لقد أحسنا فعلًا؛ لأنهما أخفيا الخطاب بسرعة، فبات العثور على الخطاب وسط تلك الحقول مستحيلًا، ولم يجد العدو شيئًا، إلا أنهم ظلوا يوبخونهما ويلكزونهما، ثم قاموا بتقييد أيديهما خلف ظهورهما واقتادوهما إلى مقرّ القيادة.

ورغم أن العدو فتشهما إلا أن ذلك لم يطمئنهم، فقد تسلل الشك إلى قلوبهم، أبلغ الجنود قائدهم العقيد عبادي قائلين: "قبضنا على جاسوسين كانا يجولان بالمكان، وقاموا بحبسهما في حجرة حتى صدور الأوامر إليهم.

بعد مدة أمر عبادي بإحضار الفتَيَيْن، ودلف المترجم إلى الحجرة أيضًا، فأمره عبادي بترجمة الأسئلة:

"ما الذي أتى بكما إلى هنا يا فتيان؟" كان عبادي يحدجهما بنظراته، يريد أن يستشف من تصرفاتهما ما وراءهما، أما الفتيان فكانا يأملان أن يعاملهما القائد بطريقة أفضل من معاملة الجنود الجافة لهما، وقد حدث ما تمنياه منذ بداية لقائهما معه، فعند خروجهما للقائه ظلا مترددين إلا أنهما ما لبثا أن تخليا عن ترددهما.

قال محمد وهو يعدل القلنسوة الرثة على رأسه: "كنا ذاهبين للتسوّل في القرية المقابلة، فنحن يتيما الأب والأم، لقد قتلوا في الحرب، وما نحن إلا متسوِّلان، فقيران، جائعان، ليس لدينا ما نأكله".

سأل عبادي الجنود عما إذا كانوا قد فتشوهما أم لا، تقدم قائد الكتيبة قائلًا: "نعم سيدي فتشناهما، ولم نجد شيئًا" اقتنع عبادي الذي علم بعدم وجود شيءٍ معهما ببراءتهما، فمستحيل أن يكون

هذان الفتيان الفقيران رثّا الثياب جاسوسيْن، ثم قال آمرًا الجنود: "أطلقوا سراح الفتَيَيْن" وأضاف ملتفتًا إلى محمد وإسماعيل محذرًا: "لا تتجولا هنا، فهذه منطقة حرب"، فقال الفتيان ونظرات الجنود المتشككة الحاقدة لا تبرحهما: "حسنًا حسنًا، نعدك يا سيدي أن لا نتجول هنا مرة أخرى".

ظلّ إسماعيل يلتفت خلفه بعد إطلاق سراحيْهما، وما زالا حتى الآن غير مصدّقين أنَّه قد أُطلِق سراحهما، ورغم هذا ظلّ إسماعيل قلِقًا، وقال لرفيقه بصوت مبحوح: "لنبتعد بأسرع وقت ممكن".

كان إسماعيل شارد الذهن تتصارع آلاف الأفكار في رأسه، لم يبق بينه وبين غابات الصنوبر إلا القليل، فقال فرحًا بنجاته: "هلم لنركض!" ثم أطلق ساقيه للريح دون أن ينتظر محمدًا، فما كان من محمد الذي لم يستطع فهم اضطراب إسماعيل إلا أن أطلق ساقيه للريح أيضًا دون تفكير.

أطلق جنود العدو-الذين رأوا الفتَيَيْن يركضان من بعيد- النار دون هوادة، وأخذت الرصاصات تتطاير عن يمينهما وعن شمالهما.

انبطح كلاهما على الأرض، وأخذا يزحفان بسرعة ليصلا إلى أشجار الصنوبر الضخمة، شعر محمد بألمٍ خفيفٍ في ساقه اليمنى، فمد يده إلى ساقه فتحسس رطوبة، ولمّا سحب يده... دماء...! ارتعدت فرائصه، وكانت ساقه تؤلمه، فصرخ "إسماعيل، إسماعيل"، وما من مجيب، كان إسماعيل لا يتحرك، فصرخ بأعلى صوته: "إسماعيل!" فما من مجيب أيضًا.

هبت رياح خفيفة حركت أغصان الصنوبر، كان هناك طائر أو طائران جارحان يبحثان عن مكانٍ ليقفا عليه، وكان إسماعيل متمددًا منبطحًا على وجهه، يروي الأرض بدمائه.

* * *

عندما استعاد محمد وعيه وجد نفسه في المشفى، وعلم فيما بعد أنهما قد قضيا ليلتهما بالمكان الذي أُصيبا فيه، وفي اليوم التالي نقلهما إلى المشفى اثنان من جنود العدو كانا يجولان بالمنطقة، أما إسماعيل الذي أُصيب بتسع رصاصات، فقد قضى نحبه في المشفى إثر نزيف حادّ، وأما محمد فبترت ساقه اليمنى التي أُصيب فيها بأربع رصاصات.

وبعد فترة اتفق الطرفان على تبادل الأسرى في قوزانلي، وأُطلق سراح جنديين سنغاليين كانا قد وقعا أسيرين في يد أهل بلدة عينتاب في مقابل محمد، كان عزاؤه الوحيد بعد كل ما مر به أنّ الخطاب لم يقع بيد العدو.

قال محمد للسيد أصلان الذي أتى لزيارته محدقًا بعينيه: "لم نتمكن يا سيدي من تسليم الأمانة، إلا أننا لم نتركها للأعداء".

أشفق السيد أصلان على محمد لتفكيره بالخطاب بينما يعاني من بتر ساقه، واغرورقت بالدموع عيناه البنيتان اللتان لطالما رأتا الموت والبطولات، وبح صوته قائلًا: "عزيزي محمد، هكذا تكون التضحية والفداء"، وربّت على رأسه.

الرسول...

قبّلت ثلاث مراتٍ التعويذة التي أهدتني أمي إياها، وطوتها بقماش سبع مراتٍ في خشوع يذكرني بالليالي المباركة، وضعتها على جبهتي، سرى بداخلي نسيم عليل من الليالي الصافية.

ولا أحد يقدر بعد اليوم على الوقوف في وجهي؛ فأنا كالريح إذا هبّت، وكالبرق إذا أومض، وكالمياه وهي تنساب.

لم يكن عملي يسيرًا ألبتة؛ فقد كنت أنقل الأخبار مجتازًا الجبال والتلال، عابرًا البحار والجسور، لكن أحيانًا تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، وأنا أنقل الأخبار نظرت فإذا بي أجد سرية من الفرنسيين، فإذا ما وقعت الرسالة التي أحملها في الجيب السري من صدريتي في يد الأعداء، فحينذاك سوف يختلط الحابل بالنابل، ويضحي حالنا يُرْثَى له، وتُسفك الدماء وتُرَاق، أكره أن تُصَبَّ الأرزاء على رؤوس جنودنا بخطأ تافه أرتكبه، لَأَلْقَيَنَّ حتفي، ولا يَنَالَنَّ الضرر أحدًا.

ولعلمي بهذا كنت إما أطلق ساقَيَّ للريح، وأتوارى عن الأنظار بأقصى سرعة بطول النهر، بين الصخور، وتحت ظلال غابات الصنوبر الكثيفة والأشجار، أو أدفن الخطاب على عجلٍ، وأتظاهر بدور الفتى راعي الغنم الساذج؛ فإن سألوني أجبت: "أتفقد عنزتي الضائعة".

وكلما ازداد عملي خطورة كلما استمتعت به، لا آكل ولا أتخاذل؛ فالأخبار التي أحملها تحمل أهمية حياتية لبلدة "عثمانية"، كنت أدرك هذا جيدًا.

كانت أول مهمة لي بنقل الرسائل بتكليفٍ من أبي، أبي رجل مقدام شجاع، ماهرٌ في أعمال الزراعة والنقش على الحجر، يدعونه محمدًا بائع الطوابع، وكثيرًا ما كان يحثني أن أكون صنديدًا لا يخاف في الحق لومة لائم، كنت وقتئذ في عقدي الأول إلا أن من ينظر إلى يديّ الضخمتيْن وجسمي الذي نضج قبل أوانه كان يظن أنني أكبر عمرًا، وكثيرًا ما كنت أصارع الأصدقاء على حافة النهر الذي يروي حدائق قريتنا، كنا نُطلق الغنم في التلال، ثم ننطلق نتصارع ونسبح في النهر...

كانت مهمتي الأولى هذه في الأيام الأولى التي اندلعت فيها الحرب... حينذاك وضع أبي رسالة بيدي وقال: "ستنقل هذا الخطاب إلى الحاج علي أفندي في جَبَلِّي، ثم شرح لي الطريق جيدًا، وطلب مني أن أكون حذرًا يقظًا، غمرتني السعادة، ولا أستطيع وصف كمّ سعادتي حينها لقيامي بعملٍ مفيدٍ، بدأت رحلتي، ولم أذق الراحة قط، توقفت عند ينبوع "كُوشْكُرْ" وارتويت من الماء الممزوج بطعم أشجار الفستق اللاذعة، غسلت يديّ ووجهي، وجددت ماء قربتي، وانطلقت مجدَّدًا في رحلتي.

عند بلوغي جَبَلِّي استقصيت وتحريت، حتى وجدت الحاجّ عليّ أفندي، كان قائد المجموعة، وكان الجنود المتطوعون الذين تحت إمرته مجتمعين حوله يستمعون إليه.

سلّمت الخطاب إليه، ولم أكن لأسلمه لأحدٍ غيره ألبتة؛ هكذا كانت التعليمات، وكنت أستوثق من عملي على كل حال... أبدى الحاج علي أفندي اهتمامًا بي دون أن يلحظ سني أو شكلي، وقال:

"لقد أتى الفتى من سفرٍ؛ فقدّموا له الطعام والشراب، ثم ليسترح قليلًا"، لم أكن متعبًا، ورغم هذا قمت بما قيل لي؛ فأكلت -هنيئًا- من المائدة الموضوعة أمامي حتى شبعت، أما هم فشرعوا يتحدّثون تحت شجرة الدُّلب، ثم دلوني على مكانٍ لأستريح فيه، وهناك سلموني خطابًا آخرَ.

خاطبني الحاج علي أفندي وهو يتأملني بعينيه قائلًا بصوتٍ أبويّ: "يا بنيّ، ستسلم هذا الخطاب للسيد حسين في عربلي، اتفقنا؟ فقلت مطرقًا رأسي: "سمعًا وطاعةً يا سيدي، سأقوم باللازم، فَقَرَّ عينًا"، ولا بد أن كلامي قد راق له؛ فابتسم، وشجعني قائلًا: "أوه ... امضِ لأرى ما أنت فاعلٌ.. كن ابن أبيك" ثم أهداني صندلًا من الجلد الطبِيعي.

حقًّا لقد شغفت بهذا العمل، كنت أعرف المنطقة عن ظهر قلب؛ فها أنا الآن أجني ثمرات السعي وراء الغنم في الجبال والتلال، والصيد مع أبي، وصلت إلى عربلي قبل حلول المساء، وكان جنود الحراسة يربضون في أطراف المدينة، وبّخوني قائلين: "ما بك تتجول هنا؟!" فقلت: "أتيت لأرى السيد حسين؛ فسأبلغه أمرًا"، عندئذ تبدّل غضبهم فضولًا، وسألوني وقد التمعت أعينهم: "ما ذلك الأمر يا ترى؟" فقلت: "وَيْحَكُمْ! وهل يُعقَل أن أقول لكم؟! فَيَا لَلَّائِمَاتِ التي تحل على رؤوسنا إن سلمنا رسائلنا لكل من هبّ ودبّ! مستحيل، لن أسلم الخطاب إلا للسيد حسين؛ فلا تُصِرُّوا دون جدوى!"، فلما رأوا صرامتي وجَلَدي تبسموا بخفة، إلا أنهم لم يلحوا عليّ، ودلوني فورًا على مبنًى من الطوب اللبِن، لا بد وأن منظره المتهالك يحمل سرًّا.

دلفت داخلًا باحترام وإجلال، فألقيت السلام، وأخرجت الخطاب من صدري وسلّمته إياه، فقبلني على جبهتي، وربّت على رأسي، وفتح محفظة نقوده وأعطاني ليرة معدنية، ثم كلّف جنديًّا شابًّا رَثَّ الثياب بالاهتمام بي، كانت عنايتهم بي أينما ذهبت دون النظر لِسِنِّي أو صورتي توقظ شعورًا بالرجولة في أعماقي.

قضيت ليلتي هناك؛ حيث كان هناك نشاط لم أكن على درايةٍ بكنهه، إلا أنني شعرت به؛ فكل منهم قلق مترقّب ... وعلى قدر ما كانت المدينة مضطربة قلقة، كانت القرى المجاورة كذلك، وحمدًا لله فلم يكن الأعداء على علم بتلك التطورات؛ فلن يُسلِّمَ أهل "عثمانية" أرضهم بسهولة، كنت أومن بهذا ملْء أساريري؛ لن تسقط المدينة في يد الأعداء، ولو كلفنا هذا الغالي والرخيص.

لم أفتح أو أقرأ الرسائل قطّ؛ كنت أَعُدُّ مثل هذا التصرف خيانةً للأمانة؛ فماذا سيكون من أمري إن سقطت بيد الأعداء؟! فأنا أكره أن يجبروني على الكلام بالتعذيب إن لم يجدوا الخطاب معي، ويحصلوا على المعلومات، لقد كانوا يقومون بهذا ثمة أحيانًا؛ فمهما رفضتَ الاعتراف وقاومته فإنهم يعذبونك حتى تصاب بالإعياء والإغماء، يكبلون من يقع بأيديهم في عمود ويضربونه بالسياط حتى الموت، ويخمدون الجمرات المتقدة في أجسادهم، وينزعون أظافرهم، أو يقطعون آذانهم، حتى إنهم يتمادون فيسلخون جلودهم أحياء، خلاصة الأمر أنهم لا بد أن ينتزعوا الكلام مهما كلف الأمر، ما لي وللتفاصيل الزائدة! أعرف فقط ما علّمونيه، فأفعله، وليس عليّ سوى هذا.

في الصباح التالي مررت بمنطقة "بهجهْ"، ومن هناك إلى "دُزْإِجِي"

رديفًا للسيد مصطفى على حصانه، وهنا استرحت يومًا، ومن ثم ارتحلت إلى منطقة "صَرْب"، وذهبت إلى "آجي ألما"، ظللت أتجول حتى وصلت في النهاية إلى "عثمانية"؛ فكم وكم قطعت في هذه الرحلة، لا أدري!

* * *

لم أشعر قطُّ بالتعب، رغم كل هذه الطرق التي قطعتها؛ ربما كان هذا لشدة ما شعرت به من نشوة وحماس، غيرَ أنّ أمي كانت تقول: إنني قد وهنت وخارت قواي، ظللت أرتشف الشربة الدافئة حتى ارتويت، كنت جالسًا على الحصيرة، مسندًا ظهري إلى الوسادة، فسكن جسدي، وشخصت ببصري فنمت دون أن أعي، فإذا بي أفيق على رائحة بخور شجر الزيزفون الذي أعدته أمي الغالية.

في الصباح التالي تجولت لأتفقد أحوال المدينة، وبينما كنت مارًّا أمام الكنيسة، إذا بالزحام حولها يلفت اهتمامي، فدلفت إلى الداخل متخذًا هيئة فتى أرمنيّ، كنت أنتعل الصندل الذي أهدانيه إياه الحاج علي أفندي، بينما كنت أرتدي معطفًا مرقعًا، هكذا تملكني فضولٌ طفوليٌّ، وأخذت أرقب ما يحدث بعناية، كان هناك من يصلي، وهناك من يشعل الشموع، وفي الركن كان بعض الأشخاص يتناقشون بحدة مع قس الكنيسة، كانت أصواتهم تتعالى عفويًّا بين الحين والآخر، كنت أسترق السمع، قال القس وهو يَحُكُّ "لحية التيس" التي على ذقنه المدبَّب: "لا بد وأن تُنقل الذخائر في أسرع وقت، فليس من المستحسن أن تمكث هنا طويلًا؛ فالداخلون والخارجون كثيرون هذه الأيام"، واستطرد في حديثه، إلا أنني لم أستطع أن أعي هذا

الجزء جيّدًا؛ فقد أخذتني مفاجأة لم تكن بالحسبان!

أخذت أتفحص المكان أكثر، كان جانب النافذة الأيسر مجْدولًا بأسلاك، فأسندت رأسي، وأرسلت نظري من بين الفتحات إلى ما وراءها، فإذا بي أجد خمسة أو ستة صناديق مغطاة ظاهريًّا أو قُصد تغطيتها بالأحرى، غيرَ أن معظمها كان ظاهرًا للعيان، فأمعنت النظر إليها أكثر، فإذا بصندوقٍ آخر تُرك غطاؤه مفتوحًا، وكانت به أسلحة، ارتعدت أوصالي من هول المفاجأة، وتملكني شعورٌ بالإثارة والحماسة لطالما عايشته بينما أنقل الأخبار، ابتعدت دون أن يشعر بي أحدٌ.

هرولت مسرعًا ووجدت أبي بِشِقِّ الأَنْفُسِ، كان يجلس في أحد الأنزال ذات الطابقيْنِ مع أصدقائه وهم متحلّقون يناقشون خطط الكر والفر لليوم التالي، عقدت ساعديّ بأدبٍ أمامي، وانطلقتُ أُنبئ الجمع بكل ما رأيت محاولًا كبح جِمَاحَ حماستي بصعوبة، كانوا جميعا ينصتون لي باهتمام بالغ، وشرحت لهم كل شيء.. كيف كانوا يتحدثون بخفوتٍ في أحد أركان الكنيسة، خبث ودهاء القس، أعين الباقين التي كانت تتألق بِبَرِيقِ الانقضاض على الفريسة على حين بغتةٍ... ربت أبي على ظهري، وقال: "ولدي نيازي، ها قد أحسنت صُنعًا مرة أخرى"، تهللت أساريري بمدح أبي لي أمام المتطوعين، بعدها أخذوا يتحدثون فيما بينهم، أما أنا فاتَّكَأْتُ على مسندٍ بجوار الموقد، كنت أُشيّد لنفسي قصورًا في الفضاء بينما أتدفأ، ثم كتب أبي ما قلته في خطاب، وأرسلني به إلى حسين باشا الذي يرأسهم.

* * *

كان يتملكني شعورٌ بالفضول لمعرفة نهاية قصة الذخيرة، وبعد أن سلمت الخطاب وَعُدْتُ أَدْرَاجِي مرّةً أخرى، بدأت أتحجج لرؤية أبي؛ فكنت ألتفُّ حوله لَعَلّي أسمع شيئًا.

في مساء اليوم التالي بلغني النبأ الذي انتظرته؛ كانت الكنيسة ستُداهم مع بزوغ الفجر، خفق قلبي في قوة، في تلك الليلة ظللت بجانب أبي بعد أن أقنعتُه أخيرًا متذرّعًا بكل حيلة، دُوهِمَت الكنسية بعد صلاة الفجر بمساعدة الجند الذين قَدِمُوا من القرى المجاورة تحت إمرة حسين باشا، كانت المداهمة أسهل مما تخيلت، كان في الكنيسة جنودٌ للعدو، وربما كانوا قد حضروا لاستلام الذخيرة، لا أعرف، في البداية حاولوا المقاومة إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود طويلًا أمام هجوم رجالنا وإقدامهم؛ تكبَّدوا أثناء ذلك بعض الخسائر البشرية، فاضطرَّ من بقي -وقد شاهدوا أصدقاءهم يسقطون واحدًا تلو الآخر- للاستسلام في النهاية.

كنت أتابع الأحداث من بعيد، وقد اتخذت من إحدى الصخور الضخمة مكمنًا لنفسي، كان ذلك شرط أبي.. أن أظل بعيدًا، فلم أخلف وعدي، وشرعت أتابعهم من بعيد بدعواتي التي انحدرت على شَفَتَيَّ.

كانت الذخيرة تُحْمَلُ على الجياد، بينما الشمس ترفع نقابها وتكشف عن وجهها الذهبي، كم كان قلبي يختلج سعادةً وطربًا؛ لما استطعت تقديمه من أعمال!

لِأَذْهَبْ أنا هذه المرة

كان البيت مضطربًا قلقًا؛ فقد تلقى أبي من خورشيد أفندي الملقب ببائع الدقيق خبرًا، قال: "فليأتني ابني أحمد، فسننقل الذخيرة والمؤن إلى كتيبة السيد شاهين".

كان أحمد في السادسة عشرة من عمره، ساعداه قويَّتانِ كالمطرقة، فتًى عريض المنكبين، ضخم الجثة، يبدو أكبر من عمره، مقدامٌ لا يخاف في الحق لومة لائم.

كان عليّ يغبط أخاه الأكبر؛ فقد كان محظوظًا؛ لأنه قُدِّرَ له أن ينشأ في كنف أخيه، وكان أحمد نِعم القدوة والأخ الذي يُفتخر به، ولَكَمْ تبع عليٌّ أخاه وسبَح معه في ساحل النهر بعد تَوَسُّلٍ وتَدَلُّلٍ، كان التجول معه في الجبال والتلال خلف الفرائس يمثل متعة له.

كان يعلم ما نقله أخوه مع أصدقائه من الذخيرة والمؤن، فكان دائمًا ما يقول: "آه، ليتني أجد الفرصة، فأنقل أنا أيضًا الذخيرة والمؤن، وأقوم بعمل مفيد".

أراد عليّ أن يغتنم الفرصة عندما تلقَّى خبرًا عن أبيه، فها قد حان دوره، ولا بد أن يفعل شيئًا.

ولأنه كان أصغر مَن في المنزل؛ فعليه أن يلجأ لحيلة التدلل، فقال لأخيه معاتبًا: "لِمَ تذهب أنت دائمًا؟! لأذهبْ أنا هذه المرة، ثم لتذهبْ أنت بعد ذلك، أريد أن أقوم بعملٍ مفيدٍ؛ لقد كبرت وأصبحت فتًى

كبيرًا"، لم يستسغ أحمد طلب أخيه في البداية؛ فلا يمكن أن يقوم أخوه بالمهمة دون أن يفعل هو أي شيء؛ فقال: "كلا، مكانك؛ فأنت ما زلت صغيرًا، فلْتعتنِ بالمنزل، أو تحضر لأبي المؤن، أو تساعد أمي".

لكن يبدو أن عليًّا ما كان له أن يتوقف عن طلب الذهاب، أو يتخلى عن إصراره، أما عن إصراره؛ فكان يحمل طابع العناد، فلما رأت أمه أن النقاش سيحتد تدخلت: "يا بنيّ، ليذهب أخوك هذه المرة، فأنت من يذهب دائمًا، لا تكسر خاطر أخيك"، وعندما انحازت إليه أخته الكبرى كذلك سمحوا له بالذهاب على ألا تكون إلا تلك المرة، ظل أحمد غير مقتنعٍ، غير أنه لم يرغب أن يطول النقاش أكثر من ذلك.

كان عليّ فتًى نشيطًا كثير الحركة، يمرح ويثب من هنا لهناك، ترتسم الدعابة على وجهه الأسمر الذي خضبته الشمس، كان دائمًا ما يشاكس أهل البيت إلا أن أحدًا لم يكن ليغضب منه، فدائمًا ما ينقلب فعله لمزاح؛ فكان يمسك بيديْ أمّه فيقبلها، يحتضن أخته فجأة، ويقبلها حتى تسأم، وأحيانًا ما يأخذ المكنسة منها، فيكنس ويكنس مثيرًا الغبار.

في الحقيقة كان عليّ يتحاشى أخاه بعض الشيء؛ فقد كان رد فعله غير متوقع؛ فأحيانًا ما كانت شقاوته تفقد أخاه أعصابه فيوبخه كثيرًا، وإن لم تتدخل أمه حينها فالويل له!

أما والده فهو شخصٌ صامتٌ هادئٌ، يذهب إلى الحقل ومنه يعود، كانت الأرض عالَمه الخارجي، وعندما يعود للمنزل يظهر عليه شيء من التعب، ورغم هذا التعب يتوضأ، ويبسط السجادة ويصلي

بخشوع، وبعد صلاة العصر يجلس في العريش الذي تضربه أشعة الشمس الأخيرة، ويسبح الله، لم يكن يتدخل بشيء أو يغضب كثيرًا، كان صبورًا كأيوب، نادرًا ما يغضب، فإن غضب لم يتجرأ أحدٌ على الاقتراب منه؛ فحينها يبحث كلٌّ منهم عن مكانٍ للفرار إليه.

أعدَّ عليّ ما استطاع من احتياجاته سريعًا، كاد يطير فرحًا وسعادةً، أخرج الجواد من الحظيرة، ووضع له دلو الماء، وأعد كيس طعامه أيضًا، وذهب إلى السيد خورشيد أفندي بائع الدقيق، وحضر أيضًا شباب الحي الذين أرسل في طلبهم واحدًا تلو الآخر، كان هناك أيضًا أقران أخيه الأكبر، كان أحدهم ابن قرية البوسطانجي من مغاراباشي، كان قائد المجموعة، وكان حديث الزواج؛ فقد زَوَّجَتْه أمه في سنّ صغيرةٍ، وكانت تقول: "لِأَرَ زوجة ابني قبل مماتي"، ومعلوم أنَّ الحرب مجهولة العواقب؛ لذا كانت تقول: "لئلا يُحْرَم ابني من متع الدنيا"، وهكذا أُقيم حفل زفافٍ بسيط بين الأهل والأصدقاء، حتى إن حنة الزفاف ما زالت بيديْهِ، وحضر أيضًا حسن بن أَسْكِي خُوسُكْ، وهو من الأصدقاء المقربين لأخيه الأكبر.

في عصر يوم من أيام الربيع الصافية شرح خورشيد أفندي للشباب ما سيفعلونه بالضبط، كان يكرر الأشياء نفسها في كل مرة دون كللٍ أو ملل: "ويحكم يا شباب! لتأخذوا حذركم! ولتغادروا المدينة من طرق متفرقة؛ حتى لا تثيروا الشك، فإن رآكم أحدٌ، فلتقولوا: ننقل القمح إلى الطاحونة".

واستطرد في حديثه بمثل تلك الكلمات، ثم قال أخيرًا: "ليقرأ كلٌّ منكم آية الكرسي سبع مراتٍ، وانطلقوا على بركة الله".

وعندما أوشك الليل أن يرخي سدوله تحرك الفتية، وتجمعوا خارج المدينة، ثم انطلقوا حيث قوات السيد شاهين، وبعد رحلةٍ متعبةٍ مضطربة وصلوا إلى المكان الذي قصدوه، كان أملهم الوحيد أن يسلموا أماناتهم سالمةً آمنةً، كان هذا همهم حتى وصلوا موقع قوات السيد شاهين، حينها تنفسوا الصعداء.

غمرت السعادة الجند الذين رَأَوُا المؤن والذخيرة، أمر السيد شاهين بنقل الذخيرة والمؤن إلى طاحونة دُقُورْجُمْ، فساعد الفتية الجند في نقل الحمولة إلى الطاحونة.

قال السيد شاهين: "لتهتموا بأبنائي هؤلاء، ولتحسنوا ضيافتهم هذه الليلة، وليبيتوا هنا حتى إذا حل الصباح عادوا سالمين آمنين بأمر الله".

كان عليّ متهلل الأسارير، عيناه تلمعان، يرقب ما حوله باهتمام، فقد سمع بشهرة السيد شاهين من قبل، وكان دائمًا ما يتملكه الفضول بشأنه حينما يذكره أطفال الحي ويتحدثون عنه باستمرار، أما الآن فما أقربه منه! ولسوف يحكي كل ما رآه هنا لأولاد الحي، فيمدح ويبالغ في المدح.

كان السيد شاهين طويل القامة، نحيف البنية، عريض المنكبين، شارد العينين، مقطب الجبين، يتحدث بتمهل، بصوته الأجش، وكان من الصعب أن تلتقي عيناك بعينيه، فكان من حوله يستمعون إليه منكسي الرؤوس، وكانت له هيئة مهيبة وقورة.

وها هو السيد شاهين يتناقش مع قادة الكتائب عن قرب، كانت مناقشتهم تحتدم من حين لآخر، فيخالط صوت السيد شاهين الأجَش رائحة أزهار السنبلة التي في جانب التل.

وطبقًا لما سمعه من الجند، فإن وحدة دعم للعدو مزودة بأسلحة ثقيلة كانت ستحل غدًا من تلك الناحية وقت الضحى على الأكثر، وكان هذا يعني أن الغد يومٌ حافلٌ.

كانت المساعدات ستصل إلى الفرنسيين قادمة من كليس، وكان لا بد من عرقلة وصولها إليهم، بينما كان وضع المدينة يُرثَى له ويزداد سوءًا يومًا بعد يوم.

من ناحية أخرى ما زالت الشائعات المتعلقة بالفرنسيين تتناقل، كجلبهم ماكينة لسلخ الجلود، وأنهم يقومون بسلخ جلود المعارضين لهم وهم أحياء، ويفقؤون أعينهم بالسياخ، كما أنهم يبقرون بطون النساء الحوامل بالحراب ..."

وكانت تتناقل شائعات أخرى أيضًا، وتعود تلك الشائعات كلها إلى التعذيب الوحشيّ الذي ارتكبه الفرنسيون بمساعدة الأرمن في البلاد التي احتلوها من قبل، فلا دخان بلا نار.

* * *

وتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن؛ ففي الصباح شرعت قوات تحالف العدو في شرق قرية بوسطانجي بالقصف مع طلوع الشمس، كان الجند يحاولون المقاومة من خنادقهم، وأخذ السيد شاهين يلقي الأوامر لبعض الجنود للسيطرة على الجسر، حتى لا يتمكن العدو من المرور من هناك، كان الأربعة عشر فتًى يتابعون الوضع بترقبٍ وقلقٍ.

قال السيد شاهين وهو يغادر: "ليبقَ الفتية هاهنا، فهنا أكثر أمانًا لهم"، فأطاعوا أمره، وظلوا يراقبون الأحداث من مكانهم، لم يكن

سير المعركة مُطَمْئِنًا، فقد تكبد الجند خسائر فادحة، وانتشرت رائحة البارود في كل مكان، وكان من العسير مواجهة القذائف بالبنادق، كانت صيحات المصابين وعويلهم تأتي من الخنادق.

تقدم السيد شاهين نحو الجسر، ولم يعد بجانبه إلا القليل من الرجال.

قال ابن قنبر البوسطانجي بقلق: "هلموا إلينا يا فتيان، لندخل إلى الطاحونة، فالوضع ليس مبشرًا"، وذهب بالفتية إلى هناك، ثم أغلقوا الباب بإحكام بغرائر المؤن والألواح والعصي، وظلوا يتمتمون بشفاههم الصغيرة ويدعون بما حفظوا من الأدعية.

* * *

ويا للمأساة، فقد استشهد السيد شاهين عند الجسر، لقد قاتل ببسالة حتى آخر قطرة من دمائه، فعندما نفدت رصاصاته، أمسك بحرابه، ولم يستكن حتى أصبح جسده من جَرَّاءِ ضربات الحراب كالمصفاة، وسقط معه الجنود أيضًا شهداء.

أما جنود العدو الذين رأوا المجموعة الصغيرة تفر من بعيد، فقد أخذوا يفتشون يمنة ويسرة حتى وصلوا لطاحونة دقورجملي، كان بابها مغلقًا، نادوا فلم يجب إلا الصمت المطبق، فأطلق عدد منهم النار حتى تحطم القفل، وفتحوا الباب أخيرًا بعد جهد جهيد، واقتحموا المكان، كان الوضع مثلما توقعوه تمامًا، فقد التجأ الفارون إلى ذلك المخبأ.

أما بالداخل فكان الفتية وقد تغضنت أساريرهم يتهامسون فيما

بينهم، قال حسن بن حسوق يشجعهم: "لا تخافوا! فاستطرد عليّ: "ويحك، مم أخاف؟! لدينا روحٌ واحدة نبذلها، وأقصى ما بوسعهم فعله سلبها، فإن فعلوا صرنا شهداء"، ثم تشبثوا جميعًا ببعضهم.

كانت المشاعر المتضاربة تتصارع في نفسِ عليّ، فلو لم يكن قد جاء لكان أخوه الأكبر محله تلك اللحظة، فسعد برهة لوجوده هنا، لكن ماذا لو أصابه مكروه ... لقد أخذ الإذن من أمه بعد طولِ تَوَسُّلٍ وتَدَلُّلٍ. كيف سيكون حال أمه حال وصول الخبر المفجع إليهم؟ ثم مَن سيواسي أخاه؟ هل سيظل يحمل على جبينه جرحًا كطعنة الخنجر ألمًا على أخيه؟ وهل من نهاية لنَدْب أخته في ليالٍ حالكة هوت فيها النجوم؟

سَأل المترجم الفتية: "ماذا تفعلون هنا؟ ومَن أرسلكم؟ ولحساب مَن تعملون؟ فلم يُجِبْ أحدٌ، وكأن أفواههم قد أُطبقت للأبد، الموت ولا إفشاء السر، هكذا اتفقوا، وانطلقت من بين أسنان صفراء كلمات القائد ذي الأنف المفلطح بلغة لم يفهموها، بينما هو مستشيط غضبًا، فيترجم خلفه المترجم: "أيَا هؤلاء تحدثوا، تحدثوا! ماذا تفعلون هنا؟ ومَن أرسلكم؟

فلم ينبس أحد ببنت شفة، كانت النظرات المليئة بالتمرد والموجهة ضد جنود العدو تدل على أنهم لا يمكن أن يفشوا السر.

أخرجوهم جميعًا، وصفّوهم أمام الصخور، ثم قيدوا أيديهم وراء ظهورهم بإحكام، كما لو أنها ستولّي هاربة، سأل المترجم للمرة الأخيرة: "ستتكلمون أم لا؟ إن لم تتكلموا فسوف تُقتلون جميعًا".

ولا جواب غير الصمت المطبق، بل أخذوا يتبادلون النظرات كيلا ينطق منهم أحد فيخونوا السيد شاهين أو خورشيد أفندي.

تناقش الفرنسيون لحظات فيما بينهم، ثم انفجروا ضاحكين بقهقهاتٍ أفزعت الطيور الجارحة، وترددت أصواتهم بين الصخور، صوب العدوّ الأسلحة نحوهم، وفُرِّغَت الرصاصات تِباعًا وما زال صدى أصواتها يتردد بين الصخور، جثمت رعدة نجم هاوٍ من بعيد على أفئدة الأمهات اللاتي شعرن بالصقيع مع هبوب رياح الحرب القارسة على بيوتهنّ.

كان عليّ في المقدمة، وكان هو أول من قُذف حتى أصبح جسده كالمصفاة، ومن بعده آخرَ فآخر ...

لم يكفِ هذا ليشفي غليل جنود العدو الثائرين، فأخذوا بالحراب يطعنون أجساد الفتية الذين رقدوا وسط دمائهم، والتي غدت مصفاة مليئة بالرصاص، وظلوا يطعنون ويطعنون حتى شُفِي غليلهم.

كان من الصعب التعرف على عليّ الذي فُقئت عيناه، وتمزق صدره بالحراب، وكذلك أَمْرُ أصدقائه، كانت ضمائرهم صافية، ولم يكن أحد منهم ليخون السيد شاهين أو خورشيد أفندي أو عينتاب أبدًا.

المبنى الحصين

كانت أرض الوطن تحت وطأة الاحتلال، واحتل الفرنسيون آدَانَهْ في النهاية...

كادت أوردة الصبر تنفجر، وضاق الشعب بالانتظار ذرعًا، وجُنِّدَ القادرون على حمل السلاح، وعندما لزم الأمر قالت أم عثمان: "لتسجلوا اسم جنديٍّ آخرَ من بيتنا"، فسَجَّلَتْ فورًا اسم قرة عينها الأخير للتجنيد، وقالت وهي تودعه: "يا بني، ذهب أبوك إلى اليمن، فلم يَعُدْ! أما أخوك فقد أسلم روحه إلى بارئها في جناق قلعةْ، وصرت أنت يا ولدي العزيز رجل البيت، لكن ما العمل! فقد لزم الأمر، ولا تظهر الرجولة إلا في مثل هذه الأيام، وقد ادخرتك كأخيك لمثلها".

كان عثمان فتىً نشيطًا، في الرابعة عشرة من عمره، غير أنه كان ناضجًا جسورًا على غير المتوقع من أقرانه، وكان قرة عين أمه ومستقبلها وأحلامها العريضة وآمالها، وكان الأمانةَ التي استودعها إياها زوجها وهو الآن -في أرض اليمن المشتعلة بلهيب حارق- ينتظر يوم العودة.

لم يخيِّبْ عثمان آمال أمّه فيه؛ فقد صار فتًى يشرِّف أباه، وأخًا يحاكي أخاه الأكبر، وقد اكتوى فؤاد عثمان من قَبْلُ بجمرةٍ ملتهبة عندما جاءه خبر وفاة أخيه مع بعض متعلقاته، كان حينها لا يزال صغيرًا، إلا أن وقْع الموت نزل على فؤاده كالصخر، ومنذ ذلك الحين قطع عهدًا على نفسه بألَّا تذهب دماء أخيه هباءً.

في البداية احتل الفرنسيون آدَانَهْ، ثم انتشر الاحتلال انتشار النار في الهشيم، وظل يتوغل بدءًا من مركز المدينة حتى امتد للمحافظات والقرى.

وقد اعتاد عثمان على الجندية تمامًا؛ إذ شارك في الهجمات الليلية من قبلُ، كما ذهب إلى القرى المجاورة لجمع المؤن عند الضرورة.

وفي إحدى الليالي، حاصروا عصابةً من الفرنسيين كانوا يجوبون المنطقة على بُعْد ساعة من وسط المدينة، على سفح جبال طُرُوسْ.

وقد كانت تلك العصابة تشن هجمات على القرى المجاورة ليلًا على حين غِرة، فرَوَّعت الأهالي، وأحرقت منازل عدة، وفتحت النيران على المصلين في المساجد، كما بترت أذن شيخٍ قرويٍّ كان ينقل الحطب من الجبل، وشَوَّهت وجهه.

أثارت تلك الجرائم التي ارتكبتها العصابة غضبًا عارمًا في نفس الرقيب عبد الرحمن، وغَدَا يحلم بالساعة التي يقع فيها هؤلاء الذين ارتكبوا تلك الجرائم الوحشيّة في قبضته، فيلقنهم درسًا يستحقونه.

وبعد مطاردة منهكة دامت ساعتين في الطقس القارس، حاصر الجند تلك العصابة في مبنًى حصين، وقد أيقنت العصابة - التي أدركت أن هناك مَنْ يتعقبها - أن الحل الأمثل ليس في مواجهة الجند بل في الهروب واللجوء للمبنى الذي يستخدمونه مخبأً مؤقتًا، فأطلق الجنود النار بشكل عشوائيّ مرة أو مرتين على المبنى، لكن دون جدوى؛ فقد كانت الجدران منيعة حصينة كأسوار القلاع، فما أَثَّرت فيها المدافع التي بحوزتهم، وكان لا بد من استخدام حيلة أخرى، فالمبنى الحجري من الصعب اختراقه، فضلًا عن أن الفرنسيين كانوا يطلقون النار من فتحات هذا المبنى ذي الطابقين.

حدث ذلك شتاءً، وكان البرد قارسًا بالخارج، فأشعل الجنود نيرانًا صغيرة محاولةً منهم وقايةَ أنفسهم من زمهرير الشتاء الذي كاد يمزق وجوههم وكأنه سكين.

امتد الحصار يومًا آخَر، وكان الفرنسيون الذين احتمَوْا بالمبنى المنيع مجَهَّزين أتمَّ التجهيز؛ فلديهم كل ما يحتاجون من أسلحة ومؤن، فضلًا عمَّا ينتظرونه من وحدات دعمٍ انطلقت لتعزيزهم، فكانوا واثقين بأنفسهم تمامًا.

جمع الرقيب عبد الرحمن الجند حوله عقب صلاة المغرب، وقال: لا

بد أن نفعل شيئًا، لن نسمح بسير الأمور هكذا، فستصل الإمدادات إليهم اليوم أو الغد، وحينها سيغدو أمرنا عسيرًا؛ لذا لا بد أن نُفْقِدَ تلك العصابة قوتها مهما كَلَّفَنا الأمر".

وبينما كان يتحدث علا صوته، وكانت تتحول قَسِمات وجهه المتغضن عندما يغضب، فتكاد لا ترى عيناه شيئًا، وحينئذٍ لم يكن أحدٌ ليجرؤ على الاقتراب منه، وكأنَّ مهابة الشتاء في الجبال قد هيمنت على جسده كله، فكان لذلك المشهد المهيب مشهدٌ آخَرُ أكثر تأثيرًا وهيمنة.

- "هلموا إليَّ فأخبروني، كيف سنقطع دابر هؤلاء؟ أشيروا عليَّ!"

لم ينبس أحد ببنت شفة، وبخجلٍ أطرق الحاج مَمِدكْ وكُشْكَر عليّ ومحمد الحداد رؤوسهم، فقد أعيتهم الحيلة، وفي الخلف كان الجند صامتين، فغضب الرقيب عبد الرحمن، وفار الدم أكثر في عروقه، كان عثمان يقف في المؤخرة، وكان يلتزم حدوده جيدًا، فلم يكن ليتكلم ما لم ينتهِ الكبار أو يأذنوا له.

ظل السكون سيد الموقف، وصُقِعَتْ القلوب ببرودة الليل، بينما كانت الأيادي تتحرى الدفء أحيانًا بالأنفاس العميقة، وبينما كان الأمر كذلك استوى عثمان على ركبتيه في ثقة، وانعقدت حواجبه وهي ترقب المكان، وتوردت خدوده، وهدر صوته كهدير الأمواج التي ترتطم بالصخور، قائلًا: "سيدي الرقيب، لديَّ ما أقوله".

كان الرقيب عبد الرحمن ينتظر الجواب من أصدقائه المصْطَفِّينَ بالمقدمة، إلَّا أن المتحدث لم يكن أحد أصدقائه المحنكين الحكماء، بل كان فتًى غضًّا، وكان الرقيب يحب عثمان لكونه جسورًا، فردَّ حين أَنْصَتَ الجميع: "كُلِّي آذان صاغية يا بني".

تَنَحْنَح عثمان كما لو كان ينظف حلقه، وانتقى كلماته بعناية قائلًا: "لديَّ فكرة تتعلق بما يجب فعله، وأرغب في الإفصاح عنها إن أذنتم لي"، فانتبهوا جميعًا في فضول لما سيقوله أصغر أفراد الجنود.

ولم يشأ الرقيب عبد الرحمن أن يثبط همة عثمان؛ إذ لم يقترح أحدٌ منهم حلًّا غيره، فأجاب محافظًا على جِدِّيَّتِه: "تحدثْ يا عثمان، بم تفكر؟" فأجابه عثمان: "لنحرق المبنى يا سيدي".

تبادلت العيون نظراتٍ جامدةً، وتساءل الرقيب عبد الرحمن بفضول: "وكيف سيكون ذلك؟"

"سيدي الرقيب، دَعْ هذا الأمر لي، فقد فكرت مليًّا في هذا الأمر، ومضى على مجيئنا هنا يومان فكرت فيهما في بعض الخطط بيني وبين نفسي، وما دمتم قد سألتم فلأخبرنكم بها"، واستطرد عثمان في حديثه متحمسًا بانتباه القوم له، سعيدًا بإنصاتهم لحديثه: "ما عليكم إلا أن تعطوني نصف صفيحة من الكيروسين، فأتسلق أنا سطح المبنى بخفة كما لو كنت أتسلق شجرة، وأشعل النيران فيه، ولتقضوا أنتم على مَنْ يفر منه".

انقشع ضباب اللوم والعتاب عن وجه الرقيب، وانفرجت أسارير وجهه، وغمرت البهجة نفسه، وأُعْجِبَ بشجاعة عثمان وفراسته، وتهامس الجنود فيما بينهم.

فأسرع الرقيب قائلًا: "مرحى بوركت! لكن عزيزي عثمان ماذا ستفعل أنت حينها؟ لا أرغب في أن يلحق بك الأذى"، فأجابه عثمان: "دعك مني سيدي الرقيب، سأعتني بنفسي".

ولأن الرقيب لم يتلَقَّ اقتراحًا آخر، وافق على اقتراح عثمان وإن اختلج في صدره بعض التردد.

كان لا بد من ترقب خلود العدو للنوم لتنفيذ الخطة على حين غفلة منهم؛ فتريثوا وهم يحبسون أنفاسهم منتظرين اللحظة الحاسمة، هبت رياح باردة من أسفل جبال شجر الصنوبر، وعوت الذئاب من بعيد، فارتجف الجنود وتشبث بعضهم ببعض، وهب كذلك نسيم عليل من الظلال الندية لأشجار الجوز فخالط نفس عثمان، وبينما كان يفكّر بأمه إذ تراءت له ابتسامتُها ترتسم على شفتيْها، ولمعانُ نظراتها المشرقة، كما

تراءى له وجه أبيه في الأضواء كطيفٍ أصفر صفرة عسل النحل، لمحه هناك في أفقٍ بلغت فيه رمال الصحراء عنان السماء.

- "هلمَّ إلينا يا عثمان، فلْنَرَ ما أنت فاعلٌ يا بنيّ! كن على حذر، فعين أمك على الطريق تشتاق لرؤيتك بعد أفول الحرب"، فتبسم عثمان من قول قائده قائلًا: "سيدي الرقيب ليثلج صدرك، فأنا أعرف جيّدًا ما يجب عليَّ فعله".

استودع كلٌّ منهما صاحبه عند ربّه وتفرّقا، وأخذ الرقيب عبد الرحمن يرقب بقلقٍ ما سيحدث.

تسلل عثمان من بين الأشجار وفي يده صفيحة الكيروسين، كان متخفيًا في عتمة الليل الأليل، بينما كان العدو يغط في سُباتٍ عميق، ولم يكن هناك سوى حارسَيْنِ كانا أيضًا في عالمٍ آخرَ.

في البداية سار عثمان في الاتجاه المعاكس، وأخذ يقترب إلى الجزء الشمالي، ومن ثَمَّ إلى الجزء الغربي الذي يطل على الصخور.

أخذ الحاج مَميدكْ يتمتم مردّدًا آية الكرسي، بينما كان ذكي الملقب ببائع الصناديق يردد: "اللّهمّ ارحم هذا الصغير".

لم ينبس أحد ببنت شفة؛ كلُّهم آذان صاغية، والأنظار مُصَوَّبَة نحو المبنى، مرَّ الوقت بطيئًا وكأن الساعة توقفت عن الحركة، وفجأةً اشتعلت نيران صغيرة أقصى الجزء الشمالي للمبنى، وأخذت النيران تتصاعد وتتصاعد مع الرياح، وبعد فترة وجيزة أخذت النيران تنتقل إلى الأطراف الأخرى للمبنى، ثم ارتفعت ألسنة اللهب من المدخنة إلى عنان السماء، وفي عتمة الليل أخذت ألسنة اللهب تتراقص يمنةً ويسرةً كلما هَبَّتْ رياحٌ.

فارتفعت الأصوات في الليل مكبرة ممزوجةً بدوي الرياح: "الله أكبر"، وانقطع عواء الذئاب القادم من بعيد.

وعلى الفور دبَّ النشاط في المبنى، كان الحريق قد امتد من المدخنة إلى داخل المبنى، وملأت الصرخات والصيحات أرجاء المكان، وانهمرت الرصاصات على غير هدًى صوب الخارج، وفي المقابل أطلق الجنود المتأهبون النار من خنادقهم، لم يمضِ وقت كثيرٌ حتى فُتِحَ الباب الذي لم يُفتح منذ يومين، فاندفع الجنود تباعًا إلى الخارج.

كان الرقيب عبد الرحمن يخشى أن يُمسَّ عثمان بسوءٍ، فصرخ في تلك الفوضى: "ويحكم! خذوا حذركم، لا يُصابَنّ عثمان بسوء، انتبهوا جيدًا، وأنت يا ذكيُّ، فلتحاول التسلل إلى الخلف مع شخصين".

استمر القتال قرابة ساعة، وأحاطت النيران بالمبنى، وكان جبين الأفق يصطبغ بألوان السَحَر، كلما ارتفعت ألسنة اللهب الحمراء إلى عنان السماء، وخفتت أصوات العدو، فما كان يتناهى إلى الأسماع إلا صوت سلاح أو سلاحين، وما لبث أن أُخْمِدَ أيضًا بالرصاصات الأخيرة لذكي بائع الصناديق القنّاص البارع.

كان عثمان لا يزال مختفيًا عن الأنظار، فارتعدت فرائص الرقيب عبد الرحمن وصاح: "عثمان! أين عثمان؟! هل رآه أحد؟"

* * *

استيقظت أم عثمان من نومها غارقة في عرقٍ كالدماء، وجثا ظلام الليل القاتم على صدرها، فقالت: "لا حول ولا قوة إلا بالله". وانتفض قلبها، بينما رَفَّتْ عينها اليسرى، وراحتْ تُتمْتِم بشفتيها المرتعشتين:" عثمان، ولدي!"

المراجِع

- عبد اللّه آيماز: **مِنْ شهداء حرب "جَنَاقْ قَلْعَهْ" طفلٌ في الخامسة عشرة**، جريدة الزمان للنشر، 17 مارس/آذار 2003.

- نوري كُوسْتُوكْلُو: **بطولات الصغار في حرب الاستقلال**، مجلة مركز أتاتورك للدراسات والبحوث، العدد 37، المجلد الثامن، مارس/آذار 1997م.

- سُميرا صَغْلَامْ: **صغار وعلى أيديهم كان النصر**، يَارِيمْآضَا للنشر، نوفمبر/تشرين الثاني 2007م إسطنبول.

- شوقي قَرَابَكِرْأُغْلُو: **شُباط 1920م: ميلاد جديد لمدينة مَرْعَاش**، إبريل/نيسان 2008م، قَهْرَمَانْمَرْعَاشْ.

- عادل ضائي: **وقائع حرب غَازِي عَينْتَاب**، 1992م، غَازِي عَينْتَاب.